إذن : فالتخييل إنما يحدث فى عينى المسحور. أقول ذلك حتى نفهم غباء كفار قريش حين اتهموا رسول الله ﷺ بأنه ساحر ، يسحر الناس ، فيخرج الولد على أبيه ، وأهله . ويجعل العبيد يتمردون على سادتهم . ولو كان رسول الله ساحراً ، فلماذا لم يُسحَر من قالوا هذا الاتهام . وبقاء من يقول بمثل هذا الاتهام دليل على أن مسألة الإيمان بالمنهج وبالرسول لا علاقة لها بالسحر .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ومن بعد ذلك يرد الحق على حكاية العجب من أن الله أوحى لرسوله ، وكذلك مسألة اتهام الرسول بالسحر ، فيلفتهم إلى قضية فوق هذه القضية ، وأنهم كان عليهم أن يروا العجب فى غير مسألة الوحى إلى الرسول ﷺ .

أى : كان عليكم أن تروا هذه المسألة العجيبة ، وهى خلق السموات والأرض وتتأملوا صنعها [١] ، وكيف حدثت ؟

وإذا كان الله هو الذى خلق السموات والأرض ، وجعلك أيها الإنسان تطرأ على عالم ، وعلى كون معّد لك إعداداً دقيقاً ، فكان يجب أن تلتفت إلى هذه المسألة قبل أى شىء آخر .

---

(١) القرآن الكريم مثبوت بالآيات التى تدعو إلى التفكر والتأمل فى خلق السموات والأرض وما بينهما، فيقول عز وجل : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الغاشية] .

وضربنا من قبل المثل ، وقلنا : هَبْ أن إنساناً ركب طائرة ، ثم نفد وقودها وسقطت فى الصحراء ، وكُتبت له النجاة وتلفَّت حوله فلم يجد ماء أو طعاماً أو أى دليل من أدلة الحياة ، ثم غلبه النوم ، فلما استيقظ من نومه ، وجد مائدة عليها من أطايب الطعام ، وأطايب الشراب ، أما كان يسأل نفسه قبل أن يأكل ويشرب : من الذى صنع وأحضر كل هذا الطعام ، وكل هذا الشراب ؟

وهذا الكون قد أعدَّ لك أيها الإنسان ، أما كان يصح أن تفكر فيمن أعدَّ لك هذا الكون ، وخلق لك كل ما ليس فى متناول قدرتك ، وسخّر كل ذلك لك ؟ وقد أبلغك الحق : أنا خلقت السماء ، وخلقت الأرض ، والشمس ، والنجوم ، وحين وصلك هذا البلاغ ، فإما أن يكون صدقاً ، فلتنفذ ما أمر به الخالق. وإن لم يكن هذا الكلام صدقاً ، فمن الذى خلق إذن ؟ إن كان هناك إله غيره قد خلق الكون ، وسمع مثل هذا البلاغ ، ولم يتحرك لبيان صدق المسألة ، لما كان هذا الآخر يستحق أن يكون إلها [1].

وما دام لم يظهر معارض له سبحانه ، فهو الخالق ؛ لأن الدعوى إذا ما صدرت من واحد ، ولم يظهر لها معارض ، فصاحبها هو من أصدرها إلى أن يوجد له معارض.

وقد ضربنا مثلاً ، فقلنا : هَبْ أن جماعة من أصدقائك جاءوا

---

(١) وقد أكد رب العزة سبحانه على هذا المعنى فى كثير من الآيات قائلاً سبحانه وتعالى فى سورة النمل : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾ [النمل] . وقال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢) ﴾ [الأنبياء] .

لزيارتك ، ثم خرجوا من عندك ، ووجدت أنت حافظة نقود ، ولم تعرف لمن هى ، ثم بعثت بخادمك ؛ ليسأل من كانوا فى زيارتك ، وقال كل واحد منهم : إن حافظة نقوده لم تضعْ منه ، إلا واحداً قال : نعم ، هى حافظة نقودى . وهكذا تثبت ملكية هذا القائل لحافظة النقود ، إلى أن يثبت العكس.

والحال هنا هكذا ، فحين أبلغنا الحق أنه خلق السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وجعل فى الأرض رزق البشر ، ولم يعارضه أحد ، إذن : يجب أن نصدق أنه الخالق.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق لكم كل هذا الكون مُسخَّراً [1] أفلا تتركون له حرية أن يختار رسولاً منكم إليكم ؟ فما وجه الاعتراض إذن ؟

يكشف الحق منطقهم حين قالوا :

﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : هم قد اعترفوا أن القرآن لا غبار عليه ، لكنهم ساخطون ويعيشون فى ضيق ؛ لأن هذا القرآن قد جاء على يد يتيم أبى طالب [2] .

ويكشفهم الحق أيضاً فيأتى بما جاء على ألسنتهم : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. (٣٢) ﴾ [الأنفال]

---

(١) مسخراً : أى : مذللاً ومقهوراً لخدمة الآدميين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) ﴾ [إبراهيم] .

(٢) مما قاله المشركون فى هذا : ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبى طالب ، فنزلت : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ... (٢) ﴾ [يونس] . نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٣٢).

ولم يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا.

فالعداوة هى لرسول الله ، وهى عداوة حاقدة غير منطقية ؛ لأن كل واحد منكم كان إذا ملك شيئاً نفيساً عزيزاً عليه ، فهو لا يجد أميناً عليه إلا محمداً.

إذن : فلماذا لا تغشون أنفسكم فى مسألة استئمان محمد على الأشياء النفيسة ، ولو كنتم غير مؤمنين بصدقه . فلماذا استأمنتموه على نفائسكم ؟ أليس هو محمد بن عبد الله الذى هاجر وترك علياً بن أبى طالب ؛ ليرد الأمانات لأصحابها ؟

إذن : فلا محمد دون مستوى الرسالة والأمانة ، ولا القرآن دون المستوى ، بشهادتكم أنتم ؛ بشهادتى القول والفعل.

وهنا يقول الحق : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ... (٣) ﴾ [يونس]

وفى موقع آخر بالقرآن يقول سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [غافر]

وما دام هذا الخلق العجيب قد صدر منه ، فالتصرفات التى دون ذلك لا بد أن تكون مقبولة منه سبحانه وتعالى ، وأن تكون لحكمة ما. وتعالوا نتحاكم إلى أنفسكم ، أنتم تقولون : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ (١) عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : لا شك عندكم فى أن القرآن لا طَعْنَ فيه ، بل تطعنون فى مسألة

(١) يقصد بالقريتين هنا : مكة والطائف . واختلفت الأقوال فى تحديد هذين الرجلين ، فقيل : إنهما الوليد ابن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفى . وقيل : إنهما عمير بن عمرو بن مسعود ، وعتبة بن ربيعة . وقيل : ابن عبد ياليل . والمقصود أنه رجل كبير من أى البلدتين كان . انظر ابن كثير (٤/ ١٢٧).

أنه جاء على يد محمد ﷺ ، وتمنيتم لو أن القرآن قد جاء على يد واحد آخر تقبلونه. وأنتم في هذه المسألة غير منطقيين ؛ لأنكم تريدون أن تتدخلوا في قسمة الله ورحمته في أن يُنزِل الوحي على من تشاءون ، لا من يشاء هو سبحانه.

وأنتم بذلك تريدون أن تتحكموا في الرحمة العليا من الله في أن يختار رسولاً ؛ ليبلغكم عنه. وتتناسون أنكم في هذه الدنيا لا تقسمون الأرزاق ؛ لذلك يقول الحق : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

فإذا كنتم تريدون أن تقسموا رحمة الله ، فاعلموا هذا القول من الله : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

وهذا الأمر السهل ؛ تقسيم المعيشة في الحياة الدنيا تصرف فيه الحق سبحانه[1] ، فكيف لكم - إذن - أن تطمعوا في تقسيم الأمر العلوي وهو رحمة الله العليا في أن يرسل رسولاً.

والحق سبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ ﴾ .

وساعة تسمع كلمة «رب» ينصرف الذهن إلى الخلق وإلى التربية ، ولذلك نحن نستعمل هذه الكلمة ونقول : «فلان رب هذه الأسرة» أي : أنه المتولي تربيتها ، وكلمة «الرب» بمعناها المطلق تنصرف إلى الله[2] ، فهو

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب» أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم في مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) وصححه ووافقه الذهبي، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال : رجاله وثقوا وفي بعضهم خلاف.

(٢) الرب في اللغة يطلق على : المالك، والسيد، والمدبر، والمربي، والقيم، والمنعم والصاحب . ولا يطلق غير مضاف إلا على الله عز وجل، وإذا أطلق على غيره أضيف، فيقال : رب كذا، مثل رب الإبل، رب الغُنَيْمة. انظر لسان العرب.

الخالق الذى خلق من عَدَم وأمدّ من عُدْم[1] ، وهو بهذا الوصف ربّ لكل خلقه : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى.

وما دام الله سبحانه ربّاً لكل الخلق ، فهو الرازق لكل خلقه ، فهو الذى استدعى خلقه إلى هذه الدنيا ، وهو الذى يعطى كل مخلوق الرزق الذى كتبه الله له ، وهو سبحانه يأمر نواميس[2] الكون وأسبابه أن تعطى له أو لا تعطى ، فإن زرع الأرض وأحسن زراعتها ؛ أعطى سبحانه الأمر للأرض أن تعطى هذا المخلوق الرزق.

وكل مخلوق يأخذ بالأسباب ، يوفر له الحق النجاح فى الأسباب.

وأقول دائماً لمن يرون تقدم الكفار فى أمور الدنيا ، ويتساءلون : لماذا يتقدم الكفار فى أمور الدنيا ونتأخر نحن ؟ أقول لهم : لقد أخذوا من عطاء الربوبية فى الأسباب ، وأنتم لم تأخذوا من عطاء الربوبية. وعليكم أيها المسلمون أن تأخذوا بالأسباب ، وهى عطاء الربوبية ؛ حتى لا يسبقكم الكافرون إليها ، ولا تجلسوا فى موقع المتفرج ، بل المفروض فيكم أن تسبقوا الكفار إلى عطاء الربوبية.

أما عطاء الألوهية ، وهو أن يُقرّ الإنسان بأن الله هو المعبود بحق ، وهو المطاع فى «افعل» و«لا تفعل» ، فهذا العطاء لا يناله إلا مَنْ آمن به.

اذن : فالله رب الجميع ، ولكنه إله مَنْ آمن به. إذن : هناك فارق بين

---

(١) العَدَمُ ، والعُدْمُ ، والعُدُمُ : فقدان الشيء وانعدامه. وهذه المادة لم ترد فى القرآن ، بل جاء بمعناه مثل قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) ﴾ [الإنسان] .

(٢) نواميس الكون : الأسرار التى أودعها الله فى الكون ، من قوانين تنظم حركة أجزائه ومكوناته. والناموس أيضاً : صاحب سر الملك أو الرجل الذى يطلعه على سره وباطن أمره ويخصه بما يستره عن غيره. ومنه الناموس : جبريل ؛ لأن الله تعالى خصه بالوحى والغيب اللذين لا يطلّع عليهما غيره.

عطاء الإله ، وهو المنهج المتمثل فى «افعل» و«لا تفعل» ، وعطاء الربوبية المتمثل فى الأمور المادية وهى شركة بين كل الناس: المؤمن والكافر، والطائع والعاصى . وحين يُحسن الكافرُ الأخذ بالأسباب ؛ فهو يأخذ نتائجها.

والحق سبحانه هو القائل :

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

إذن : فواجب على المؤمنين أن يستقبلوا عطاء الربوبية بحسن الأخذ بالأسباب ؛ ليأخذوا النتيجة ، ولا يتقدم أهل الكفر عليهم ؛ لأن الكافر حين يسبقك فى الأخذ بالأسباب ، ربما استغل هذه المسألة فى أن يفرض عليك ما يخالف دينك .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ ... (٣)﴾ [يونس]

أى : أن الذى ربَّى ، هو الذى كلَّف ، ويجب أن تستمعوا إلى منهجه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ... (٣)﴾ [يونس]

وكلمة ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هذه وردت فى كل آيات القرآن التى تحدثت عن زمن مدة الخلق للأرض والسموات ، لكن هناك آية جاءت بتفصيل ويظهر من أسلوبها أن الخلق قد استغرق ثمانية أيام ، وهى فى سورة فصلت :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ [1] وَتَجْعَلُونَ لَهُ

(١) «يوما خلق الأرض من جملة الأربعة بعدهما ، والمعنى فى تتمة أربعة أيام ، وهى مع يومى خلق السموات ستة أيام . . يوم الأحد والاثنين لخلق الأرض ، ويوم الثلاثاء والأربعاء للجعل المذكور فى الآية وما بعده ، ويوم الخميس والجمعة لخلق السموات» قاله أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن» ص ٣٧٣ . وانظر ابن كثير (٤/ ٩٣) .

أندادا [١] ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⁽⁹⁾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ [٢] مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا [٣] فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ⁽¹⁰⁾﴾ [فصلت]

وهذه ستة أيام.

ثم يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⁽¹¹⁾ فَقَضَاهُنَّ [٤] سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ⁽¹²⁾﴾ [فصلت]

وهكذا يكون المجموع ثمانية أيام، وهذا هو الفهم السطحي؛ لأن آيات الإجمال جاءت كلها بخبر الخلق في ستة أيام. وتعلم أن كل مُجمل يفسره مُفصَّله إلا العدد؛ فإن مفصَّله محمول على مجمله، فالأرض خلقها الله في يومين، وجعل فيها رواسي، وبارك فيها، وكل مخلوق ثان هو تَتمَّة للأول، فاليومان الأولان إنما يدخلان في الأربعة الأيام، وأخذت بقية الخلق اليومين الأخيرين، فصار المجموع ستة أيام.

إذن: فالزمن تتمة الزمن. ولذلك تجد أن اليوم على كوكب الزهرة أطول من عامها؛ لأن عامها بتوقيت الأرض هو مائتان وخمسة وعشرون يوماً، أما طول اليوم فيها فهو بتوقيت الأرض مائتان وأربعة وأربعون يومًا.

إذن: فاليوم على كوكب الزهرة أطول من العام فيها. والسر في ذلك أن كوكب الزهرة يخضع لدورة تختلف في سرعتها عن سرعة الدورة التي

(١) الأنداد: جمع ندّ، وهو الشبيه والنظير والمثيل. والأنداد: الأصنام المعبودة من دون الله.

(٢) الرواسي: الجبال الثابتة الراسخة. وقد تحدث رب العزة عن حكمة خلق هذه الجبال فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ⁽³¹⁾﴾ [الأنبياء] أي: لئلا تتحرك بهم وتضطرب، فلا يصلح لهم عيش عليها.

(٣) الأقوات: جمع قوت وهو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام والمقصود به الرزق مطلقاً.

(٤) قضى الشيء قضاء: صنعه وقدّره. فقضاهن هنا بمعنى: خلقهن وعملهن وصنعهن وقطعهن وأحكم خلقهن.

تخضع لها الأرض ، فدورة كوكب الزهرة حول نفسه بطيئة ، ودورته حول الشمس سريعة .

إذن : فكل كائن له نظام .

وما هو اليوم إذن ؟ اليوم فى اعتبارنا هو دورة الأرض حول نفسها دورة يتحقق فيها الليل والنهار . ولكننا نجد القرآن الكريم يطلق كلمة اليوم ويفصلها عن الليل ، فيقول سبحانه : ﴿ **سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا** ... (١٨) ﴾ [سبأ]

وهنا جعل الحق اليوم للضوء والكدح ، والليل للظُّلمة والراحة . والحساب الفلكى يسمى الليل والنهار يوماً .

ويبين القرآن لنا أن هناك يوماً للدنيا ، ويوما للآخرة ، ويوم الدنيا هو ما نحسبه نحن من شروق إلى شروق آخر ، وكذلك هناك يوم عند الله هو بحساب الدنيا يقدر بألف سنة مما يحسبه البشر : ﴿ **وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** (٤٧) ﴾ [الحج]

ويقول الحق فى موضع آخر : ﴿ **تَعْرُجُ** [1] **الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ** [2] **إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** (٤) ﴾ [المعارج]

إذن : فالأزمنة متعددة ، ومنوعة ، وتختلف من قياس إلى آخر ، ومن

---

(١) تعرج ، أى : تصعد . عرج يعْرج عروجاً . وفيه ﴿ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) ﴾ [المعارج] ؛ المعارج : المصاعد والدرج . قال قتادة : ذى المعارج أى : ذى الفواضل والنعم . وقيل : معارج الملائكة هى مصاعدها التى تصعد وتعرج فيها . وقال الفراء : ذى المعارج من نعت الله ؛ لأن الملائكة تعرج إلى الله ، فوصف نفسه بذلك . والقراء كلهم على التاء فى قوله : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ .. (٤) ﴾ [المعارج] إلا ما ذكر عن عبد الله ، وكذلك قرأ الكسائى .

(٢) للمفسرين فى لفظ الروح فى الآية هنا عدة أقوال هى :

١ - جبريل ، ويكون من باب عطف الخاص على العام (أى : الملائكة المذكورين قبله) .

٢ - اسم جنس لأرواح بنى آدم ، فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء .

٣ - خلق من خلق الله يشبهون الناس وليسوا أناساً .

كوكب إلى آخر. وما أظهره الله لنا في القرآن من الأزمنة إنما يدل على اختلافها، لا على التعارض والتناقض[1].

ثم يقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ووقف العلماء عند كلمة «اسْتَوَىٰ»[2] طويلاً، واستعرضوا القرآن كله؛ ليحصروها في كتاب الله؛ فوجدوها قد جاءت في اثنتى عشرة سورة: البقرة والأعراف ويونس والرعد وطه والفرقان والقصص والسجدة وفصلت والفتح والنجم والحديد.

وأول سورة جاء فيها ذكر استواء الله على العرش هي «الأعراف» يقول الحق: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي[3] اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا[4] وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ

---

(١) فاليوم الذي كألف سنة، أي: كل يوم من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض. قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة، ونص عليه الإمام أحمد بن حنبل في كتاب «الرد على الجهمية».
- أما اليوم الذي كخمسين ألف سنة ففيه أربعة أقوال:
١- المراد به مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين، وهو قرار الأرض السابعة.
٢- مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة.
٣- المراد به يوم القيامة. جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة.

(٢) سئل الإمام مالك بن أنس: استوى كيف استوى؟ فقال: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وقوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ... (١٤)﴾ [القصص] قال أبو منصور: كلام العرب أن المجتمع من الرجال والمستوى الذي تم شبابه وذلك إذا تمت له ثمان وعشرون سنة، ويحتمل أن يكون بلوغ الأربعين غاية الاستواء وكمال العقل. [اللسان: مادة (سوا)].

(٣) غشَّيتُ الشيء تغشية إذا غطّيته، وغَشِيَه الأمر وتغشاه وأغشيته إياه. يقول تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ... (٥٤)﴾ [الأعراف]. وقال اللحيانيّ: وقرىء (يُغَشِّي). وقرىء في الأنفال: ﴿يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ... (١١)﴾ [الأنفال] و(يغشِّيكم)، و(يغشاكم). وغشاء كل شيء: ما تغشاه كغشاء القلب والسَّرْج والرَّحْل والسيف ونحوها. وغَشِيه يغشاه غشيانا إذا جاءه، وغشّاه تغشية إذا غطاه. وغَشِيَ الشيء إذا لابسه، قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١)﴾ [الليل]. وقال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤)﴾ [الشمس]. [اللسان: مادة (غشا)].

(٤) حثيثاً أي: مسرعاً حريصاً. ورجل حثيث ومحثوث: حادٌّ سريع في أمره كأن نفسه تحثُّه. والحثُّ: الإعجال في اتصال، وقيل: هو الاستعجال. وحثَّه واحتثَّه، أي: حَضَّه وشجّعه على فعل شيء. [اللسان: مادة (حثّ)].

مُسَخَّرَاتٍ [١] بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾ [الأعراف]

ومادام الله سبحانه هو الذى خلق فلا تعترض أن يكون الأمر له ، وأن يبعث سبحانه من شاء ؛ ليكون رسولاً ؛ لذلك فلا عجب أن أرسل لكم رجلاً منكم ؛ لأنه لو كان هناك غيره سبحانه هو الذى خلق ، ثم جاء ليفتئت [٢] فيأمر فيما خلق ، لكان للخلق شأن آخر ، لكن الله هو الذى خلق ، وهو سبحانه الذى أرسل الرسول ﷺ .

والآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول فيها الحق : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ، أى : استتب له الأمر .

ثم تأتى آية سورة الرعد : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾ [الرعد]

أما الصفات التى توجد فى البشر ، ووصف الله نفسه بها ، هذه الصفات لا تؤخذ على مقتضى ما هى فى البشر ، فكل إنسان هو ممكن الوجود . ولكن الحق سبحانه وتعالى هو واجب الوجود ؛ لذلك تؤخذ تلك الصفات فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ... (١١) ﴾ [الشورى]

ومثال هذا : أن الحق سبحانه وتعالى له علم بأنك تقرأ الآن فى التفسير ، وفى أى مكان تقرأه ، والذين من حولكَ يعلمون ذلك ، ولكنْ أعلْمُ الله يساوى علمَك وعلمَ مَنْ حولك ؟ لا ، فعلمه سبحانه وتعالى هو

---

(١) النجوم مسخّرات : جاريات مجاريَهُنّ . وتسخير الشمس والقمر والنجوم للناس هو الانتفاع بها فى بلوغ منابتهم ، والاقتداء بها فى مسالكهم ، والتسخير : التذليل . [اللسان : مادة (سخر)] .

(٢) يفتئت : يختلق ويكذب .

علْم أزلىّ [1] ، علْم قبل أن توجد أنت أو يوجد غيرك ؛ لذلك فأنت إذا علمت شيئاً ، وَعَلمَ الله شيئاً ، فعلْم الله يناسبه ، وعلْم البشر يناسبك. وأىُّ صفة من صفات الله مطلقة ، وَأىُّ صفة من صفاتك نسبية ؛ لأن الحق سبحانه هو واجب الوجود الأزلى ، وأنت فى هذه الحياة مجرد حدث محدود العمر بين قوى الميلاد والموت.

فالله غنى ، وقد تكون أنت غنياً ، لكن غناك لا يمكن أن يتساوى مع غنى الله . وأنت موجود والله موجود ، ولكن وجود ك لا يمكن أن يُقَاس بوجود الله . فذاتُ الله ليست كذواتنا ، وكذلك صفات الله ليست كصفاتنا ، وفعْله ليس كفعْلنا ، واستواؤه سبحانه ليس كاستوائنا ، بل فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لأن الذى يُفْسد الفهم أن يقال : «استوى» بمعنى : قعد . أو فلنأخذ الاستواء كتمثيل لَلسيطرة ، وسبحانه مسيطر على كل شىء ، والاستواء : يعنى التمكن. وسبحانه القائل : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ [2] أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ... ⦗١٤⦘﴾ [القصص]

إذن : فاستوى : تعنى بلوغ تكوين الكمال فى الذات. والإنسان منا وهو صغير – قبل البلوغ – إنما تنقصه بعض من درجات النضج فى الجهاز العصبى ، وكذلك فى الجهاز التناسلى ، فإذا ما بلغ اكتمل النضج ، ويقال: (اسْتَوَى) أى: صار قادراً على إنجاب مثله ، وتمت له رجولته . ويقال عن الثمرة : إنها استوت ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ [الفتح]

أى : نضجت نُضْجاً يبلغها أن تعطى من ثمرتها مثل ذاتها ، وبذلك تضمن بقاء نوعها.

---

(١) الأزَلُ : هو القِدَم. ومنه قولهم : هذا شىء أزلىّ ، أى : قديم. وقيل : إن أصل هذه الكلمة قولهم للقديم : لَمْ يَزَلْ ، ثم نُسبَ إلى هذا فلم يستقم إلا بالاختصار ؛ فقالوا : يَزَلىّ ، ثم أبْدِلَتِ الياء ألفاً ؛ لأنها أخفُّ فقالوا : أزلىّ.

(٢) المقصود هنا هو موسى عليه السلام ، أى : لما اكتمل تكوينه ، وقيل : إن هذا يكون عند سن الأربعين.

وحين بلغ الطوفان تمامه استوت مركب سيدنا نوح ومعه المؤمنون من قومه ، وقال الحق : ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ[١] ... ﴿٤٤﴾﴾ [هود]

أي : استقرت على الجبل واستتب الأمر .

إذن : فكل استواء لله يجب أن يؤخذ على أنه استواء يليق بذاته ، وصفاته ، التي قد يوجد في البشر مثلها ، لكنها صفات مطلقة في إطار : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ... ﴿١١﴾﴾ [الشورى]

وفعل الله لا يمكن أن يتساوى مع فعل البشر ؛ ولذلك قلنا في حديث الإسراء[٢] : إن الكفار المعاصرين للإسراء حينما كذَّبوا النبي ﷺ في أنه قد أسرى به ، قالوا : أتدَّعي أنك أتيتَ بيت المقدس في ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟[٣] وهذا القول المستنكر يؤكد أنهم قد فهموا أن الإسراء قد حدث حقيقة .

ورغم ذلك تجد بعض المعاصرين - الذين يدعون المعاصرة والفهم - يتساءلون : ولماذا لا تقولون : إن الإسراء قد تَمَّ بالروح ؟ ونقول لهم : إن كفار قريش أنفسهم الذين عاصروا رسول الله ﷺ لم يقولوا ذلك ، وفهموا أن الإسراء قد تمَّ بالجسد ؛ لذلك قالوا : «أنضرب إليها أكباد الإبل شهراً ،

---

(١) الجودي : موضع ، وقيل : جبل ، قال الزجاج : هو جبل بآمد ، وقيل : جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام .

(٢) أسْرَيت وسَرَيت إذا سرْت ليلاً . يقول تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا ... ﴿١﴾﴾ [الإسراء] وأسرى بعبده : سَيَّر عَبده . وأسراه ، وأسرى به بمعنى واحد . ويقول تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾ [الفجر] معنى يَسْر : يمضي . أو يُسْرَى فيه . وقد حدث الإسراء برسول الله ﷺ قبل الهجرة بسنة ، وقيل بستة عشر شهراً .

(٣) ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما أصبح غدا على قريش ، فأخبرهم الخبر فقال أكثر الناس : هذا والله الإمْرُ البين ، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟ (سيرة النبي لابن هشام ٢/ ٤). والإمْرُ : هو الشيء العظيم العجيب المنكر .

وتدّعى أنك أتيتها فى ليلة ؟» بل ، ولم يقولوا له : إنه رأى بيت المقدس فى رؤيا أو حُلْم [1] ؛ لأنه لا أحد يُكذِّب رؤيا أو حُلْماً ، وهكذا كان تكذيبهم دليلاً على التصديق للإسراء إلى أن تقوم الساعة .

ونقول لمن يدَّعى أن الإسراء إنما تَمَّ بالروح : افهم جيّداً أن رسول الله ﷺ قال : «أسرى بى» .

إذن : فعْل الإسراء منسوب لله ، فلا تأخذ الإسراء بالقانون البشرى ، ولكن بالقانون الإلهى .

والزمن فى مسألة الإسراء منسوب لله ، لا لمحمد ﷺ . والقرآن يقول : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء]

وما دام الحق قد قال : (سُبْحَانَ) أى : أن الله مُنَزَّهٌ عَمَّا فى بال البشر من المسافات والقوة وغيرها .

ولقد ضربنا مثلاً لهذا - ولله المثل الأعلى - برجل يصعد بابنه الرضيع قمة جبل « إفرست » ، فلا يقال : وهل يصعد الرضيع قمة الجبل ؟ فالصعود منسوب هنا للرجل ، ولقدرة الرجل وقوته ، لا إلى الطفل .

وهكذا - ولله المثل الأعلى - فالزمن والقدرة على الإسراء منسوبان لله سبحانه ، لا إلى محمد ﷺ .

ونحن فى مجالنا البشرى تختلف قدراتنا فى قطع المسافات وأزمانها ، فمن يركب عربة يجرُّها حصان فقد يصل من القاهرة إلى الإسكندرية فى

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : «لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس قمت فى الحِجْر ، فجلا الله لى بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه» . أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٣٧٧) ، والبخارى فى صحيحه (٤٧١٠) ومسلم (١٧٠) . فوصف لهم رسول الله ﷺ بيت المقدس باباً باباً ونافذة نافذة وأعمدته والطريق إليه . وهذا لا يعقل أن يكون حُلماً أو رؤيا مهما كانت رؤيا صادقة أن تكون دالة على كل هذه التفاصيل .

أيام ، ومَنْ يركب سيارة فقد يصلها في ساعتين. ومَنْ يركب طائرة فقد يصلها في نصف ساعة.

إذن : فكلما زادت القوة تجد الزمن يقل ، فما بالنا بقوة القوىِّ ؛ أيكون معها زمن؟ طبعاً لا.

وقال الحق سبحانه لسيدنا نوح : ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ[1] .. (٢٨)﴾ [المؤمنون]

أي : بعد أن ركب معك يا نوح مَنْ آمن من قومك ، واطمأننت على نجاتهم ، ستسير السفينة بإذن ربها.

إذن : فقول الحق عن ذاته : ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ... (٣)﴾ [يونس]

يعني : أن الأمور قد استتبت وتمت. وهكذا نفهم أن كل شيء يتعلق بالحق سبحانه وتعالى نأخذه في إطار : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١)﴾ [الشورى]

وأن كل صفة من صفاته يأتي تمثيلها ليقرب المعنى فقط ولا يعطى حقيقة المعنى ؛ لأنه سبحانه ليس كمثله شيء. وهكذا فسبحانه له استواء يليق بذاته ، لا كاستواء البشر.

والشاعر أبو تمام[2] حين جاء ليمدح الخليفة المعتصم ، نظر إلى الصفات التي اشتهر بها بعض القوم ، «فحاتم» على سبيل المثال كان قمة الكرم.

---

(١) الفُلْك : السفينة ، تُذكّر وتؤنَّث ، وتقع على الواحد والاثنين والجمع. قال تعالى : ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩)﴾ [الشعراء] ، وقال : ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ... (١٢)﴾ [فاطر] ، وقال : ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ .. (١٦٤)﴾ [البقرة] وقال : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم .. (٢٢)﴾ [يونس].

(٢) هو حبيب بن أوس الطائي ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صبياً لحائك توفي (٢٣١ هـ) عن ٥١ عاماً.

و«عنترة»[١] هو قمة الشجاعة ، «والأحنف بن قيس»[٢] قمة الحكمة ، فقال الشاعر أبو تمام عن الخليفة :

إِقْدَامُ[٣] عَمْرٍو فى سَمَاحَة حَاتِمٍ فى حِلْمِ أَحْنَفَ فى ذَكاء إِيَاسِ

وهكذا صار الخليفة مَجْمع فضائل ؛ لأنه أخذ إقدام عمرو ، وكرم حاتم ، وحلم الأحنف ، وذكاء إياس. ولكن حاسد الشاعر قال : إن الأمير فوق كل من وَصَفْتَ ، فهؤلاء جميعاً بالنسبة للخليفة صغار. وقال أحد الشعراء :

وشبهه المدَّاح فى البأس[٤] والنَّدى[٥] بَمنْ لو رآهُ كان أصغَرَ خادمِ

ففى جَيْشه خَمسُونَ ألْفاً كَعنْترٍ وَفى خزَائنه ألفُ ألف حاتمِ

وحين سمع الشاعر الأول ذلك ، وكانت قصيدته الأولى «سينية» ، أى : أن آخر حرف فى كل أبياتها هو حرف السين ، فجاء بأبيات أخرى من نفس بحر القصيدة الأولى ، وقال :

لا تُنكروا ضَرْبى له مَنْ دُونهُ مَثلاً شَروداً[٦] فى النَّدَى والباسِ[٧]

فالله قَدْ ضَرَبَ الأقَلَّ لنوره مثلاً من المشْكَاة[٨] والنِّبراسِ[٩]

---

(١) هو : عنترة بن شداد ، أشهر فرسان العرب فى الجاهلية ، من أهل نجد ، أمه حبشية اسمها زبيبة . توفى نحو ٢٢ قبل الهجرة .

(٢) هو : الأحنف بن قيس ، سيد تميم ، يضرب به المثل فى الحلم ، ولد فى البصرة (٣ ق هـ) وأدرك زمن النبى ولم يره ، توفى بالكوفة (٧٢ هـ) عن ٧٥ عاماً .

(٣) الإقدام : هو المضىّ إلى الأعداء بجراءة وشجاعة .

(٤) البأس : الشدة فى الحرب. ورجل شديد البأس : شجاع .

(٥) الندى : السخاء والكرم والجود .

(٦) مثلاً شروداً : خارجاً عن المألوف والعادة .

(٧) الباس : هو البأس . خففت همزتها لضرورة الشعر .

(٨) المشكاة : كوة فى جدار البيت ليست بنافذة وتعرف فى قرانا بـ«الطاقة» ، مع نطق القاف همزة .

(٩) النبراس : المصباح والسراج : والشاعر هنا يقصد قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ... (٣٥) ﴾ [النور] .

إذن : فهناك فَرْق بين تمثيل الشيء ، وبين حقيقة الشيء ، فحين قال الحق : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ...(٣٥) ﴾ [النور]

فهذا مثل توضيحى للبشر . وشاء الحق ذلك ليعطينا مجرد صورة ؛ لأنه يتكلم عن أشياء لا وجود لها عندك . ولذلك نجد الرسول ﷺ يقول عن الجنة : « فيها ما لا عَينٌ رأت ، ولا أُذُنٌ سمعتْ ، ولا خَطَرَ[1] على قلب بَشَر »[2] .

وأنت حين ترى ؛ فللرؤية حدود . وحين تسمع فأنت تسمع مرائى غيرك ، وما لا يخطر على البال هو القمة ، فقد ارتقى الرسول فى وصفه للجنة من حدود ما تراه العين إلى آفاق ما تسمعه الأذن ، ثم ارتقى من حدود السمع إلى ما لا يخطر على البال ؛ لأنه ﷺ علم أن اللغة هى ألفاظ تعبر عن معان ، والمعانى توجد أولاً ثم نأتى لها بالألفاظ ؛ ولذلك فالأمثال لمجرد التوضيح باللغة .

وهكذا نكون قد استوفينا فهم قوله الحق : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ بما يليق بذات الله ، فلا نأخذ الاستواء على المعنى الذى يدل على مكان محيّز ؛ لأنه سبحانه مُنَزَّه عن أن يكون متحيزاً فى مكان ؛ فذاته سبحانه ليست كالذوات ، وفعله ليس كالأفعال ، وصفاته ليست كالصفات .

---

(١) خطر : الخاطر : ما يخطر فى القلب من تدبير أو أمر ، والخاطر : الهاجس . ويقال : خطر ببالى وعلى بالى كذا إذا وقع ذلك فى بالك ووهمك . والجمع : خواطر .

(٢) عن سهل بن سعد الساعدى قال : شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال ﷺ فى آخر حديثه : «فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة] أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٥) وأحمد (٥/ ٣٣٤) من طريق ابن وهب عن أبى صخر به إلى سهل بن سعد ، وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٤١٣) من طريق عبد الله بن سويد عن أبى صخر به . وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى .

ثم يقول بعد ذلك : ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أى : أنه يرتب الوجود ترتيباً يجعل كل شىء موضوعاً فى مكانه بحكمة. والحق سبحانه وتعالى له صفة علم ، وصفة إرادة ، وصفة قدرة ، وصفة العلم هى التى تضع كل شىء فى مكانه بحكمة. وصفة الإرادة هى التى تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه. وصفة القدرة تبرز المراد لله.

إذن : فهناك علم ، وهناك إرادة ، وهناك قدرة تبرز المراد على وفق العلم. ومن المنطقى أن يدبر الله كل أمر ؛ لأنه سبحانه هو الذى خلق السموات وخلق الأرض. واستوت له الأمور بحيث لم يعد هناك خلق جديد إلا ما يبرزه بـ «كن». وهو سبحانه بعد أن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وسخَّر له السموات والأرض ؛ لذلك لا بد أن يدبر سبحانه للإنسان أمور مادياته ، وأمور قيمه.

أما أمور الماديات فقد ظهرت فى خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والماء والهواء. وما فى الأرض من عناصر تنبت للإنسان ما يحتاج إليه فى قوام حياته ، وهو سبحانه الذى خلق كل ذلك قبل أن يخلق الإنسان ، ثم جاء بالإنسان ليكون الخليفة والسيد.

إذن : فالإنسان هو الذى طرأ على هذه الأمور المادية ، وكان لا بد أن يُنزِلَ الحق سبحانه قيماً يحيا بها الإنسان كخليفة فى هذه الأمور المادية.

وهكذا خلق الله القيم المعنوية ، فلا تقولوا : لماذا أرسل رسولاً لايُحسب فى نظر بعض الناس من عظماء أقوامهم ، ولا تقولوا لماذا أرسل محمداً بالتحديد؛ لأن هذا الإرسال هو من ضمن تدبير الأمور ، و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. ﴿١٢٤﴾﴾[1] [الأنعام]

(١) قوله سبحانه : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام] جاء رداً على من قال الله سبحانه فيهم : ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ .. ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام].

إذن : فقوله : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ جاء ليؤكد نَفْى التعجب من أن يكون الوحى لمحمد ﷺ : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا .. ﴿٢﴾﴾ [يونس]

وعلتها أن الله هو ربكم وهو الذى خلق ، ولا يجادل أحدٌ الله فيما خلق ، وفيمن خلق. وإذا كان هو سبحانه الذى خلق الإنسان والكون ، فلا بد أن ينظم حركة الوجود بين الإنسان والكون ؛ لذلك اختار الرسول المناسب ؛ ليحمل منهج القيم للإنسان فى «افعل كذا» و«لا تفعل كذا». ثم ترك الحق للإنسان أموراً لا يقول له فيها : افعلها أو لا تفعلها ، فهى من المباحات.

وإذا استقرأت الأفعال والأحداث ، ستجد أن الذى قال الله فيه «افعل» قليل ، والذى قال الله فيه « لا تفعل» قليل. وبذلك تجد المباحات أكثر من «افعل» وأكثر من «لا تفعل»[1].

وما دام سبحانه هو الذى شاء ذلك ، وترك لك أيها الإنسانُ الكثير من الأمور المباحة ، فاترك القيم لله ؛ لأن الكون المادى المخلوق لله فى غاية الدقة وفى غاية النظام ، ولم تمتنع الشمس أن تشرق أو تعطى ضوءها وحرارتها للناس ، وما امتنع القمر أن يعطى نوره ، وما امتنع السحاب أن يسقط مطراً مدراراً ، وما امتنعت الأرض أن تتفاعل مع أى غَرْس تغرسه فتعطيك الغذاء ، وكل شىء داخل فى نطاق القدرة فى النواميس العليا ؛ مُحكم ؛ ولا خلل فيه[2].

---

(١) ولهذا نجد أن المحرمات منصوص عليها في القرآن من نحو قوله تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ... ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام] ولذلك تعارف الفقهاء على قاعدة فقهية هى : الأصل فى الأشياء الإباحة.

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب». أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم فى مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) وصححه ووافقه الذهبى. وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال : «رجاله وثقوا وفى بعضهم خلاف».

وإذا نظرتم إلى غير ذلك وجدتم الخلل قد حدث ؛ لأن الشيء الذى لا تدخل فيه قدرة الإنسان وإرادته هو على أتم ما يكون من النظام ، ولا يفسد إلا الشيء الذى للإنسان فيه عمل واختيار ، ولا يعنى ذلك أن كل أعمال الإنسان تعانى من الخلل ، لكن الأعمال التى تعانى من الخلل هى الأعمال التى يُقبل عليها الإنسان دون منهج الله . ولو اخترنا البدائل على ضوء منهج الله ، لاستقامت القيم كلها، كما استقامت لنا نواميس الكون العليا[1] .

فإذا رأيتم فساداً فلوموا أنفسكم ؛ لأن الأمر الذى لا تتناولونه بأيديكم ولا دخل لكم فيه ، يعمل غاية فى الدقة ، فإن أردتم أن تعمل أموركم الاختيارية بغاية الدقة ؛ فخذوا منهج الله فى الأفعال ، ولا تفسدوها أنتم بأن تختاروا البدائل على غير مرادات الله.

ولذلك أقول دائماً : إنك إذا ما رأيت عورةً فى الوجود ، يتعب منها المجتمع ، فاعلم أن حداً من حدود الله قد عُطِّل . وإن وجدت أمة متخلفة ، فاعلم أنها عطلت حدود الله ، وإن وجدت أمة تعانى من أمراض اجتماعية جسيمة ، فاعلم أنها لا تطبق منهج الله.

ويخطىء مَنْ يقصر فَهْمَ عبادة الله على أنها الانقطاع فى المسجد ، أو الصوم ، أو إخراج الزكاة فى ميعادها ، أو الذهاب إلى الحج ، فكل هذه هى رءوس الإسلام تشحن العبد ليعمل وَفْق منهج الله ، فالصلاة هى إعلان الولاء لله خمس مرات فى اليوم ، ومدة الصيام شهر كل عام ،

---

(١) قال سبحانه وتعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) ﴾ [الروم] والفساد هنا قد يكون النقص فى الزروع والثمار على البر وأخذ السفن غصباً فى البحر فيما كان يعرف بأعمال القرصنة ، وقد يكون خللاً يحدث فى البيئة .

والزكاة إنما هى من فائض المال ، والحج هو تَرْكٌ للمال والأهل والولد.

كل ذلك من أجل شحن الطاقة ، فإذا ما شحنت الطاقة ، فوجِّه الطاقة إلى عمل آخر. ولنأخذ الصلاة مثلاً : فأنت تحتاج إلى طاقة تُقيمك وتُقعدك وتستبقى حياتك ؛ وقوة حركتك تحتاج كل ذلك لتصلى!

إذن: فأنت تحتاج إلى طعام ، ولن تُطْعم ما لم يكُنْ لك عمل يتيح لك شراء الطعام ، وحتى يبيع لك التاجر الخضر واللحم ، والفاكهة والخبز ، هو يحتاج إلى مَنْ ينتج ذلك ، ومَنْ ينتج الأطعمة يحتاج إلى مَنْ يدرس طبيعة الأرض والبذور ومعرفة الأوقات ، وكل هذه الأمور تحتاج إلى أجهزة منظمة لإنتاج الطعام . فمن يزرع يحتاج إلى محاريث تحرث ، وهذا يستلزم وجود الحديد وآخرين ليصهروه ويستخرجوا منه ما يصلح لصناعة المحاريث.

إذن : فقيامك إلى الصلاة يحتاج إلى كل هذه الأعمال. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وهكذا تجد أن كل الأعمال التى تُسهِّل لك العبادة هى أعمال واجبة. والمثال : أنك حين تصلى تحتاج إلى سَتْر عورتك ؛ لذلك تشترى القماش ليُفصِّل لك الخائط ما ترتديه من ملابس ، وكل هذه الأعمال التى تنتج القماش وتصنع الثياب هى أعمال واجبة ، بدءاً من زراعة القطن أو الكتان أو التيل وغيرها إلى المغازل ومصانع النسيج ، وغير ذلك. وهكذا تجد أن كل الأعمال التى يتم الواجب بها هى أعمال واجبة ، فَسَتْر العورة أمر شرعى ، وهكذا يتسع مفهوم العبادة ليكون معناها : كل حركة تؤدى إلى إبقاء الصالح على صلاحه وزيادة الصالح إلى ما هو أصلح.

والمثال الذى أضربه دائماً : هو حاجة الإنسان إلى الماء للشرب ،

والغُسْل من الجنابة[1] وطهو الطعام وغير ذلك ، وكان الإنسان قديماً يشرب من الآبار ، ثم تطور التفكير إلى إقامة شبكات لتوزيع المياه بعد تنقيتها ، كل هذه أعمال تُزيد الأمر الصالح صلاحاً ؛ لأنك أخذت الماء من المطر الذى ملأ النهر ، وأعليْتَ الماء فى خزانات لتنقيته ، ثم اكتشفت قوانين الاستطراق[2] ومضخات المياه ؛ ليصل الماء الطاهر إلى كل من يحتاجه. وهكذا تزيد الصالح صلاحاً بالتفكير واستخدام العلم بما يفيد الإنسان ، إذن : فهذا عمل عبادى ما دامت النية فيه لله .

وانظر إلى يوم السوق فى أى قرية ، تجد من يدخله ومعه الماشية والأنعام[3] التى يرغب فى بيعها ، وتجد مَنْ يدخل بالفواكه والأطعمة ، ومَنْ يدخل ومعه الثياب أو أدوات المنزل ، وتجد من يدخل ليس معه شىء ، وبعد انتهاء السوق تجد كل إنسان قد خرج بما يحتاج ، لا بما دخل لبيعه . وهكذا ألقى الله الخواطر فى قلب وتفكير إنسان ما ليبيع ما لا يحتاجه ، وآخر ليشترى ما يحتاجه من إنتاج غيره.

وأنت إذا نظرت إلى قرية ما ، ستجد واحداً من أعيانها يرغب فى بيع أرضه وقصره ، ويرغب فى الرحيل إلى بلدة أخرى ، وهكذا ترى الميزان الاقتصادى الإلهى ، الذى يوزع العباد فى الأماكن التى تليق بكل واحد

---

(١) الجنابة : إنزال الرجل ماءَه من جماع أو نوم ، وسُمِّى الرجل جُنُباً لأنه يجتنب الصلاة والطواف حال جنابته . ويجب عليه الاغتسال غُسْل الجنابة وله كيفية ذكرتْها سنة رسول الله ﷺ ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : «كان رسول الله ﷺ إذا اغتسل من الجنابة يبدأ فيغسل يديه ، ثم يُفرغ بيمينه على شماله ، فيغسل فرجه ، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة ، ثم يأخذ الماء ، فيدخل أصابعه فى أصول الشعر ، حتى إذا رأى أن قد استبرأ حَفَنَ على رأسه ثلاث حفنات ، ثم أفاض على سائر جسده ، ثم غسل رجْليه» . أخرجه مسلم فى صحيحه (٣١٦) والبخارى فى صحيحه (٢٤٨) بنحوه .

(٢) الاستطراق : عدّة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال ، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أفقية ، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أفقى واحد . [المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية] .

(٣) الأنعام هى : الإبل والبقر والغنم . ومثلها الماشية ، ومعنى المشاء : النماء . فالماشية أى : التى تنمو وتكثر . ولفظ الأنعام جاء به القرآن ٤٢ مرة ، بل نزلت سورة باسمها وهى سورة الأنعام .

منهم ، فإذا ما زاد واحد عن الحاجة فى مكان ، فهو يرحل إلى مكان آخر يحتاجه. وهذا هو التدبير الإلهى على أحسن ما يكون.

وقد تجد - مثلاً - الطفل يكتب بيده اليسرى ، على عكس أقرانه ، وقد تضربه على ذلك ، فيعجز عن الكتابة باليمنى وباليسرى ، وحين يقول لك الطبيب : لقد شاء الله أن يجعل ابنك موهوباً فى الخط الجميل ، وهو يكتب بيده اليسرى ، فأنت تتعجب ، وتكتشف بالفعل أن خط الطفل باليد اليسرى جميل.

وأقول دائماً لمن يشكون أن بعضاً من أولادهم يكتبون باليد اليسرى أو يأكلون باليد اليسرى ، أقول لهم : إن هذه مسألة تتعلق بالجهاز العصبى للإنسان ، فهناك من خلقه الله لِيَعْملَ باليد اليمنى ، وهناك من خلقه الله ليعمل باليد اليسرى [1] ، وهناك من خلقه الله ليعمل بيديه الاثنتين ، مثل سيدنا عمر - رضى الله عنه - وكان «أضبط» [2] أى : يعمل بيديه الاثنتين .

وعلينا أن نحترم أقدار الله فيما خلق ومَنْ خلق. فسبحانه يخلق ما يريد ، لا وَفْق قوالب ، بل يخلق ما يشاء ، ومع كل خَلْق مراد معين. وكما أحسن الحق تدبير ما ليس لكم دَخْلٌ فيه ، فاعلموا أنه قد أنزل المنهج

(١) المقصود به هنا من خُلق هكذا لا يستطيع أن يستخدم يمينه ، أما الذى يستطيع استخدام يده اليمنى ولكنه يأكل أو يشرب أو يرتدى بشماله ويفضلها على اليمنى فقد خالف استحباب استخدام اليد اليمنى الذى وردت به سنة رسول الله ﷺ ، فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ، وإذا شرب فليشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٢٠) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٣٢٨).

وعن سلمة بن الأكوع أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله فقال : «كل بيمينك». قال : لا أستطيع. قال : لا استطعت. ما منعه إلا الكبر. قال : فما رفعها إلى فيه. أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٢١) فهذا الرجل استنكف أن يطيع رسول الله ﷺ فى مثل هذا الأمر لا أن عنده عذراً خلقياً أو شرعياً يمنعه ، ولذلك دعا عليه رسول الله ﷺ ، فشُلَّت يده.

(٢) الأضبط : هو الذى يعمل بيديه جميعاً ، يعمل بيساره كما يعمل بيمينه. ذكره ابن منظور فى لسان العرب (مادة : ضبط).

لِيُحسِّن مما لكم فيه دَخْلٌ ، ويجعل أموركم منتظمة ، وكل ذلك يدخل ضِمْن تدبير الأمر.

وأنت إذا نظرت إلى معنى كلمة «أمر» تجد أنها كل شيء ينشأ ، ولماذا عدل سبحانه عن قول : «شيء» إلى قول : «أمر» ؟ ؛ لأن كل شيء لا يوجد في الوجود إلا بـ «كن» وهي أمر. وسبحانه القائل :﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس]

وسبحانه يدبر الأمر في السنن المادية التي لا تتناولها يد الإنسان ، فإن أراد الإنسان أن يضبط أمور حياته ، فليأخذ بالمنهج الذي أنزله الله بـ «افعل» و«لا تفعل» ، وأما المباحات فهي كثيرة ، والإنسان حرٌّ فيها.

وإذا ما سأل سائل : ولماذا أتَّبِع المنهج؟ أقول : إن الحق شاء أن يخلق الإنسان على هيئتين : هيئة إرغامية [1] قهرية ، وهيئة اختيارية ، فأنت أيها الإنسان مقهور في أشياء ، ومُختار في أشياء أخرى ؛ أنت مقهور في التنفس ، وتتنفس آلياً دون تدخُّل منك ، تتنفس مستيقظاً أو نائماً ، ولو كان التنفس باختيارك ، لاحتجْتَ إلى مَنْ يدير حركة تنفسك وأنت نائم ؟

إذن : فمن رحمته سبحانه أن جعلك مقهوراً في مثل هذه المسألة وكذلك نبضات قلبك ، أنت مقهور فيها ، وكذلك أنت مقهور في الحركة الدودية للأمعاء ، وللحركة الانبساطية والانقباضية في المعدة ، وإفراز العصارات الهضمية ، كل ذلك أنت مقهور فيه ، وأنت مُختار في أشياء أخرى ، كأن تشتري من البائع الفلاني ، أو بائعٍ غيره ، وأنت مُخَيَّر في أن تختار أصناف الطعام التي تهواها.

(١) أرغمه : حَمَلَه على ما لا يقدر أن يمتنع عنه. والرُّغْم : القسر والإجبار.

والمباحات فى الوجود كثيرة ، وما أكثر ميادين الحرية فى الحياة ، وما حدده لك الحق سبحانه وتعالى بـ«افعل» و«لا تفعل» ، لا يخرج عن أمور محصورة تصونك وتصون مجتمعك ، وكذلك الكون الذى تحيا فيه. وإنْ مارسْتَ أيها الإنسان حريتك فى الأمور المباحة على أى لون شئت ، فذلك لا يفسد الكون.

وقد شاء الحق سبحانه - أيضًا - أن تكون مقهوراً فى بعض الأمور حتى لا يفسد الكون ، فإن أكلت ما شئت من المأكولات غير المحرمة ؛ فأنت حُرٌّ ، وإن سلك كل إنسان كما يهوى فى الأمور المباحة ؛ فلا مانع لذلك. وكل البشر يختلفون.

وأراد سبحانه أن يحمى الإنسان والكون ؛ لأنه علم أزلاً أن أهواء البشر تتضارب ، وهو القائل : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ [1] لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ... (٧١)﴾ [المؤمنون]

ولهذا نرى أن تدبير الله فيما لا دخل لنا فيه ، تدبير مُحكَم ، وما يسير بدون تَدَخُّل من البشر إنما يتبع نظاماً مستقيماً ، وشاء الحق أن يجعل نواميس الكون تعمل بدقة يندهش لها المؤمنون بالله والكافرون به [2] ، فسبحانه يحكم فى مُلْكه بدقة متناهية ؛ حتى إن بعض العلماء ممن لا يؤمنون بمنهج الله قد حددوا مواعيد الكسوف الكلى أو الجزئى

---

(١) هَوَى النفس : إرادتها ، والجمع : أهواء. والهوى : محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه ، قال تعالى : ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) ﴾ [النازعات] أى : نهاها عن شهواتها ، وما تدعو إليه من المعاصى. ومتى تُكُلِّم بالهَوَى مطلقاً لم يكن إلا مذموماً حتى يُنعت بما يُخرِج معناه ، كقولهم : هَوًى حَسَنٌ ، وهَوًى موافقٌ للصواب.

(٢) نواميس الكون : أسراره. والناموس فى اللغة : صاحب سر الملك أو الرجل الذى يطلعه على سره وباطن أمره ويخصه بما يستره عن غيره.

للشمس أو القمر [1] بدقة متناهية وذلك باستقرائهم لمعطيات الكون.

وما دُمْتم أنتم تتميزون على الكافرين بالإيمان بالله، فخذوا منهج الله في حياتكم؛ لتستقيم أموركم بمثل استقامة الكون.

ولذلك قال سبحانه: ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ... (٣) ﴾ [يونس]

ويضيف: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ [2] إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ وجاء الحق بمسألة الشفاعة بعد مسألة تدبير الأمر؛ لأن هؤلاء الكافرين الذين تعجبوا من إرسال الله لرسوله ﷺ، كانوا يعبدون ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ويقولون: إن تلك الأصنام تشفع لهم عند الله، مصداقاً لقوله الحق: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ..(١٨) ﴾ [يونس]

ولذلك يُفصِّل الحق سبحانه مسألة الشفاعة. فالإنسان لا يحتاج إلى شفاعة عند مَنْ يملك الأمر إلا إذا ارتكب جُرْماً أو حدث منه تقصير في أمر ما. والآية أوضحت أنهم يعبدون ما لا يضرهم إن لم يعبدوه، وما لا ينفعهم إن عبدوه، وأقروا أن مثل هذه الأصنام إنما تشفع لهم، والشفاعة من الشفع، والشفع ضد الوتر. والوتر هو ما لا يقبل القسمة على اثنين، فيكون الوتر رقماً فردياً [3].

---

(١) الكسوف: احتجاب نور الشمس، أو نقصانه؛ بوقوع القمر بينها وبين الأرض. وهو للشمس كالخسوف للقمر.

(٢) شفيع: صيغة مبالغة من (شافع) وهو الذي يشفع أي: يطلب العفو لشخص آخر، والشافع: الطالب لغيره. والجمع: شفعاء. قال تعالى: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ... (٨٥) ﴾ [النساء].

(٣) الشفع: خلاف الوَتْر، وهو الزوج. تقول: كان وَتْراً فشفعته شفعاً. وشَفَعَ الوَتْرَ من العدد شفعاً أي: صَيَّره زوجاً. والشفيع من الأعداد: ما كان زوجاً. تقول: كان وَتْراً فشفعته بآخر. قال تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) ﴾ [الفجر]. قال الأسود بن يزيد: الشفع هو يوم الأضحى والوتر يوم عرفة. وقال عطاء: الوتر هو الله، والشفع خَلْقُه. وقال ابن عباس: الوتر آدم شُفِعَ بزوجته. وقيل في الشفع والوتر: إن الأعداد كلها شفع ووتر.

والعبد من هؤلاء له موقف من الإله الذى يعبده ، وهو غير قادر على مواجهته ؛ لأنه مقصر ، فبدلاً من أن يقابله فرداً يأتى بآخر معه ؛ ليشفع له ، وهكذا يكون معنى الشفع هو تعضيد[1] الفرد بواحد آخر ؛ فينتقل من كونه وتراً إلى كونه شفعاً.

وكان الكفار على عهد رسول الله ﷺ يقولون عن تلك الأصنام : إنهم شفعاء لهم عند الله ، فيقول الحق سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ... ③﴾ [يونس]

لأن الشفاعة تقتضى شافعاً ومشفوعاً عنده ، ومشفوعاً له ، ومشفوعاً فيه ، هذه هى الأربعة العناصر فى الشفاعة. والذى يستشفع هو المقصِّر ، وهؤلاء الكفار قالوا عن الأصنام : إنها شفعاء لهم عند الله ، وهذا إقرار منهم بالتقصير ، وأقروا بأن المشفوع عنده هو الله ، وأما المشفوع فيه ؛ فهو تخفيف العذاب أو إنهاء العذاب.

إذن : فالمشفوع فيه أمر مشترك ، والمشفوع عنده أمر مشترك ، أما الأمر فى الشافع ، والأمر فى المشفوع له ، فهما مختلفان. وأنت - على سبيل المثال ، لا تأتى بإنسان يسير فى الطريق وترسله ليشفع لك (مثلاً) عند المحافظ أو عند الوزير ؛ إن كانت لك حاجة عند أى منهما ، بل تأتى بإنسان تعلم رضا المحافظ عنه أو رضا الوزير عنه ، وله منزلة ومكانة ، وهذه المنزلة والمكانة تسمحان له بالإذن فى أن يكلِّم المحافظ أو الوزير فى أمور الناس.

وإذا كان هذا هو الحال فى الشفاعة من البشر لدى البشر ، فما بالنا

---

(١) الاعتضاد : التقوّى والاستعانة ، واعتضدت بفلان : استعنت به ، والمعاضدة : المعاونة. وهى مأخوذة من العضد : وهو الساعد ، أى : ما بين المرفق إلى الكتف. والعضد : القوة ؛ لأن الإنسان إنما يقوى بعضده فسميت القوة به. قال تعالى : ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ... ㉟﴾ [القصص].

بالشفاعة للإنسان لدى الله ؟ لذلك بيَّن الحق هنا أن الشفيع لا بد أن يكون بإذن منه سبحانه ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ... (٣)﴾ [يونس]

وفي سورة البقرة يقول سبحانه : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ (٢٥٥)﴾ [البقرة]

وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩)﴾ [طه]

إذن : فالشفيع لا بد له من إذن ورضًا من الله .

أما المشفوع له فقد قال الحق :

﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ .. (٢٨)﴾ [الأنبياء]

هكذا بيَّن لنا الحق عناصر الشفاعة : الشافع ، والمشفوع له ، والمشفوع عنده وهو الله سبحانه ، والمشفوع فيه هو الذنوب وهي معروفة .

ولقائل أن يتساءل : ما دام الحق سبحانه قد رضي عن عبد ، فلماذا يحتاج العبد إلى الشفاعة ؟

وأقول : لننتبه إلى أن الإنسان يتعرض لأعمال كثيرة، وله نقاط ضعف في حياته؛ قد تكون كثيرة، وقد تكون قليلة، فإذا جاء في نقطة الضعف وأذنب ذنباً، فعليه أن يزيد من فعل النقاط القوية التي تُكتب له بها الحسنات؛ لأن المعيار هو : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ [1] يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ... (١١٤)﴾ [هود]

---

(١) ذهب بعض علماء التفسير إلى أن الحسنات هنا بمعناها المطلق أي : فعل الخير مطلقاً . وذهب بعضهم إلى أن الحسنات هنا المقصود بها الصلوات الخمس ، واستدلوا بحديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهراً غمراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا» متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٥٢٨) ومسلم (٢٨٣) .

فالعبد حين يزيد من الحسنات فالحق سبحانه قد يمحو السيئات ، وليعلم كل إنسان أنه إن اختلس من الله حكماً فهو لن يستطيع أن يهرب من العقاب ، وعليه أن يزيد من الحسنات ، ويرجو المغفرة من الله ؛ وقبول التكفير بالحسنات عن السيئات ، ولن يُفلت أحد من ملكوت [١] الله .

وهَبْ أن إنساناً فيه نقطة ضعف ، وأذنب ذنباً ، وعنده نقطة قوة يطيع فيها الله بسهولة ويُسْر ، هذا الإنسان له أن يعلم أن الله يحبه لأجل نقطة قوته هذه ، وقد يرحمه الله سبحانه فيما أذنب من الذنوب ، ويجعل المأذون له في الشفاعة يشفع له عنده سبحانه .

فلماذا أراد الحق ذلك ؟

شاء الحق ذلك حتى لا يُحرمَ العالم من الحسنات التي يجيدها ذلك الإنسان . ويحكي لنا الحديث النبوي الشريف عن الرجل الذي لقي كلباً يلهث من العطش ، ولم يجد الرجل إناء يملأه ماء من البئر ليسقي الكلب ، فنزل البئر وملأ خفه [٢] ، وعاد إلى الكلب ليسقيه . وبطبيعة الحال لم يكن هذا الرجل لينافق الكلب ، بل منتهى الرحمة بهذا الحيوان ، كذات خلقها الله ؛ لذلك غفر الحق سبحانه لهذا الرجل [٣] .

وهكذا نفهم أن الحق يغفر ويمحو السيئات . وقد جعل الحق سبحانه الشفاعة لرسول الله تكريماً له ﷺ ، وكذلك في المأذون له في الشفاعة ،

(١) ملكوت الله : سلطانه وعظمته . والملكوت : ملك الله خاصة ، قال تعالى : ﴿ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ [المؤمنون] . قال أبو إسحاق : ملكوت كل شيء معناه : القدرة على كل شيء .

(٢) الخف : النعل يلبسه الإنسان في قدمه .

(٣) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له . قالوا : « يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال : في كل ذات كبد رطبة أجر » أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٠٩) ومسلم في صحيحه (٢٢٤٤) .

حتى يعلم المسلم أن الرسول قد يشفع له ، وأن المؤمن قد يشفع لأخيه ، وأن الأب قد يشفع لابنه [1] ، وحين يعلم المسلم ذلك ، فهو يحسن إلى كل هؤلاء ؛ لعله يحصل على الشفاعة منهم ، ويحسن اتباع سنة الرسول ﷺ ، ويحسن معاملة المؤمنين ، ويحسن الابن معاملة والديه ، وهكذا يعيش المجتمع فى كرامة الشفاعة بعمل الخير وإخلاص النية .

وإذا رأيت إنساناً محسناً فى دينه ، فلا بد لك أن تحترمه ؛ لأن إحسانه فى دينه قد ينفعك أنت ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى فى سورة الفاتحة يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ﴾ [2] [الفاتحة]

وكان الحق سبحانه قادراً أن ينزلها « إياك أعبد وإياك أستعين » ولكنه شاء أن تنزل على صورتها تلك ؛ حتى يأذن سبحانه بقبول الصفقة من كل قائليها ، فيتقبل من عباده أعمالهم بما يغفر لبعضهم الأشياء المعيبة .

ولذلك أقول : إن رأيت إنساناً مستغرقاً فى العبادة فلا تسخر منه ولا تهزأ به ؛ لأن حرصه على الطاعة وانشغاله بالعبادة قد تنفعك أنت .

وساعة تتلقى أمراً من رسول الله ﷺ وتجده شاقاً ، فعليك أن تتذكر أنه المرجع الذى قد يشفع لك فى الأمور التى لم تقدر عليها .

---

(١) هذه الشفاعة مقيدة بألا تكون فى حد من حدود الله ، وهذا ما دلت عليه السنة الصحيحة ، فعن عائشة رضى الله عنها أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التى سرقت فى عهد النبى ﷺ فى غزوة الفتح ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ فأتى بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد ، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال : « أتشفع فى حد من حدود الله ؟ » فقال له أسامة : استغفر لى يا رسول الله » الحديث . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٨٨) والبخارى فى صحيحه (٦٧٨٨) .

(٢) مراد الشيخ أن العبادة أولاً ثم يأتى العون ؛ لذلك نجد سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما أودع هاجر وإسماعيل إلى البيت الحرام قال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾ [إبراهيم] فالعبادة سبقت ، والعبادة وسيلة العطاءات والشفاعات وبالعبادة يأتى العون .

ولا بد أن يرضى الحق عن المشفوع له ؛ لأنه قد أجاد فعل حسنات . وإن كانت له سيئات ، وقد رأى رجل سيدنا عمر فى رؤيا ، فسأل الرائى سيدنا عمر بن الخطاب : ماذا فعل الله بك يا ابن الخطاب ؟ فقال سيدنا عمر : غفر الله لى . فسأل الرائى : بماذا ؟ أجاب سيدنا عمر : لأنى رأيت غلاماً يعبث بعصفور فاشتريته حتى لا أفجعه فى عصفور يملكه ، وأخذت العصفور وأطلقته .

واعترض أحد السامعين للرؤيا متسائلاً : ألم يفعل ابن الخطاب أعمالاً تؤهله لمغفرة الله إلا مسألة العصفور هذه ؟ فقال له قائل : أحسن الفهم يا رجل ؛ فمسألة إطلاق العصفور إنما تخص غفر الخطايا ، وأما أعمال عمر بن الخطاب الجليلة فهى لرفع الدرجات .

وفى القرآن آيتان جاءتا بنص متقارب ، فالحق يقول :

﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ**[1] ... (٤٨) ﴾ [البقرة]

والآية الثانية تقول : ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ** ... (١٢٣) ﴾ [البقرة]

ومن حاولوا المقارنة بين الآيتين بغرض الطعن فى القرآن ، هم من الغرباء عن اللغة ولا يملكون ملكة[2] البيان التى يمكن أن يستقبلوا الأساليب بها، ولو امتلكوا هذه الملكة لعلموا أن الصدر فى الآيتين محتمل

---

(١) عدل : فداء أو بدل .
(٢) الملكة : صفة راسخة فى النفس أو استعداد عقلى خاص لتناول أعمال معينة بحذق ومهارة ، مثل : الملكة اللغوية .

لوجهين ، فهناك نفس جازية هى التى تتشفع ونفس مجزىٌ عنها هى التى يُتشفع لها.

والضمير الذى يأتى فى قوله الحق : ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ و ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ و ﴿وَلَا تَنفَعُهَا﴾ ، هذا الضمير يصح أن يرجع إلى النفس الشافعة ، ويصح أن يرجع إلى النفس المشفوع لها . والإنسان منا إذا ما كان عليه شىء لإنسان آخر ، وغير قادر على أن يستبرىء ذمته منه ، فهو يلجأ إلى صديق لهذا الآخر ، له مكانة عنده ليستشفع له . وفور أن يذهب صاحب المكانة إلى هذا الآخر فهو يقول له : هل تقبل شفاعتى لفلان ؟ فإن قال صاحب الأمر : لن أقبل الشفاعة ، فالمستشفع عنده يقول له : إذن : سأدفع العدل، أى: ما يساوى قيمة ما كنت سأتشفع له فيه. وهكذا نجد أنفسنا أمام نفسين : شافعة ، ومشفوع لها . والضمير يعود على أى من النفسين.

وهكذا نجد أن صدر كل آية من الآيتين اللتين يقال عنهما : إنهما متشابهتان ، صدر كل منهما منسجم مع عجزها .

وينهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بعد أن أوجزت الآية فكرة عن خلق الله تعالى للكون ، وأنه يشفع لمن شاء ويختار من يقدم له الشفاعة ، فيقول : ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [يونس]

فسبحانه خلق الكون ، واستتبَّت بيده مقاليد الأمور ، وخلق الإنسان ليعمر هذا الكون ، ونعلم أنه سبحانه قد شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو ، وحين يشهد الحق لنفسه ، فسبحانه على ثقة تامة بأن أوامره فى كونه نافذة .

وقوله سبحانه : ﴿ ذَٰلِكُمُ﴾ أى : إشارة إلى ما تقدم من خلق السموات والأرض ، والاستواء على العرش ، وتدبير الأمر كله ،

ولا أحد يشفع عنده إلا بإذنه ، هذا هو الله ربكم ، وما دام هو ربكم فاعبدوه ؛ لأنه هو الذى خلق من عدم ، وأمد من عُدْم ، وله كل صفات الكمال المطلق .

وهذه العبادة لا تعود عليه سبحانه بأى فائدة ، فسبحانه منزَّه عن فائدة تعود عليه ؛ لأنكم إن عبدتموه فلن تزيدوا فى ملكه شيئاً ، وإن لم تعبدوه فلن تنقصوا من ملكه شيئاً [1] . والعبادة يعود نفعها عليكم ؛ لأنكم ستأخذون بها منهجاً يخرج كل الخلق عن أهوائهم ، ويصير هوى الموجِّه واحداً ، فلا تصطدم إرادة بإرادة ، بل تتساند الإرادات ؛ فيتكامل العالم .

إذن : فالعبادة توحِّد أهواء الخلق إلى مراد واحد ، لا يأنف [2] الإنسان منا أن يخضع له ؛ لأن هذا ليس خضوعاً من بشر لبشر ، بل خضوعاً من مخلوق لخالق ، وبذلك تستقيم أموركم الاختيارية ، كما استقامت أموركم غير الاختيارية .

وهكذا لا تنحصر العبادة فى أركان الإسلام الخمسة فقط ، بل تكون هذه الأركان الخمسة هى الدعائم التى تقوم عليها عمارة الإسلام ، وكل الإسلام هو كل أمر لله وكل نهى له سبحانه ؛ ولذلك حين نتابع تسلسل الأمور ، سنجد أن أركان الإسلام الواجبة تعتمد على حركة الحياة كلها ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

---

(١) عن أبى ذر عن النبى ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « . . . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . . » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) وأحمد فى مسنده (٥/ ١٥٤ ، ١٧٧) .

(٢) يأنف : يكره .

ويقول الحق في آخر الآية: ﴿ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾والذهن أو المخ - كما نسميه - فيه ملكات متعددة مثل: ملكة التخيُّل، وملكة الحفْظ والاختزان، وكثير من الملكات الأخرى منها مَلكَةُ التذكُّر. ومعنى التذكُّر أن شيئاً سبق لك إِلْفٌ [1] به، فطرأ عليك ما أنساك، وحين تنسى أمراً يخصُّ أحد أقرانك، فهو يقول لك: تذكر يا أخي الأمر الفلاني، وهو لا يأتي لك بأمرٍ مجهول لم تعرفه أولاً، بل يأتي لك بأمر كان معلوماً لك، ولكنك نسيته.

والإنسان حين ينظر إلى الكون نظرة غير متحيزة لا بد أن يؤمن بأن لهذا الكون إلهاً، وهذا الأمر لا نأخذه من الفلاسفة، بل من رجل الشارع، وراعي الشاة؛ فقد جاء في الأثر أن راعياً كان يسير في الصحراء فرأى بَعْراً [2] في الطريق، فقال: إذا كان البعر يدل على البعير، والسير يدل على المسير، أفلا يدل كل هذا الكون على وجود اللطيف الخبير؟!

والمثال من حياتنا اليومية: أن غسّالة الملابس الكهربية - وهي لا تدل على شيء ضروري في الحياة، بدليل أن السابقين علينا كانوا يغسلون ملابسهم بدونها، فهي تمثل ترفاً، لا ضرورة - نجد الناس يعرفون من الذي ابتكرها، ومن أوصلها بالكهرباء ومَنْ صنع لها توقيتات دورات الغسيل، ومثلها مثل المصباح الكهربي الذي يفسد بعد عدد معيّن من الساعات، ونجد التلاميذ يدرسون تاريخ من صنعه، فهل يمكن أن ننسى من خلق الشمس التي تضيء الكون؟

(١) ألفتُ الشيء وآلفتُه: لزمته، أو أنست به، أو اعتدته، فهو مألوف. قال تعالى: ﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) ﴾ [قريش].

(٢) البَعْرة: واحدة البعر، وهو رجيع الخُفّ، والظِّلف من البعير.

بل ونجد فى زماننا العالم الكافر وهو يمدُّنا بأدلة الإيمان ، فكل اختراع نجد مَنْ يسجله ؛ حتى لاَ يسرقه غيره ، فما بالنا بالشمس التى تضىء وتُدْفىء ، والقمر الذى يحدد الشهور ، والنجوم التى تدل الناس على الاتجاهات [1] ولا شىء فى كون الله يحتاج إلى قطع غيار ، ألا نعترف بمن خلق كل ذلك ، ها هو ذا سبحانه يدلنا على مَنْ خلق ويبلغنا ما يسجل له ملكية ما خلق ، فأنزل القرآن على الرسول ﷺ ليدلنا على أنه سبحانه الذى خلق ، وأبقى الله الكافرين ليتحدى مَنْ يناقض قضية الخلق . وسجل الحق سبحانه ما خلقه لنفسه، ولم يقدر أحد من الكافرين على إنكار ذلك .

ولن نأخذ الأدلة على وجود الله من الفلاسفة الذين يرتبون النتائج على المقدمات ، ومطابقة قياس الشكل على الموضوع ، بل سوف نأخذ الدليل من كلمة « الكفر » نفسها ، هذه الكلمة (كفر) تعنى : (ستر) ، فهل يُسْتَرُ إلا موجودٌ ؟

إذن : فالكفر بالله دليل على وجود الله ، وما دام الكفر سَتْراً ، فالكفر أمر طارىء ، نتيجة للغفلة ، والغفلة إنما تأتى لأن مقتضيات الإيمان تقيد النفس فى حركتها ؛ لذلك قد يغفل الإنسان متناسياً أن قيود المنهج لا تطبق عليه وحده ، بل تطبق على كل الناس .

فحين يُحرِّم الله السرقة ، فهو لم يحرمها على إنسان واحد ، بل حرمها على كل إنسان ، فقيَّد الآخرين ومنعهم من أن يسرقوا منك .

---

(١) ملأ الله سبحانه الكون بدلائل ربوبيته ووحدانيته وأنه الخالق سبحانه وهو البديع الذى أبدع الأشياء على غير مثال سابق ، وجعلها سبحانه ظاهرة للأعين :
منها الشمس التى قال عنها سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) ﴾ [النبأ] وقال عنها وعن القمر : ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ (٥) ﴾ [يونس] وعن النجوم قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ (٩٧) ﴾ [الأنعام] .

وحين يأمرك بغض بصرك [١] عن محارم جارك ، فهو يحمى محارمك أن ينظر إليها غيرك .

إذن : فالإيمان جاء بالنفعية لكل إنسان . وما دام الأمر كذلك ، نجد الحق سبحانه يقول [٢] : ﴿ اذْكُرُوا .. ③ ﴾ . [فاطر]

وحين يجلس الإنسان بمفرده ولا تُحركه شهواته فهو يهتدى إلى الإيمان بأن هذا الكون لم يأت صدفة .

واسم الخالق للكون لا يمكن أن يعرفه الإنسان بعقله ؛ لأن التصورات تختلف من إنسان لآخر . وتجد أن الفلاسفة حين أقروا بأن هذا الكون لا بُدَّ له من خالق لم يتعرفوا على الاسم ، بل أخطأ بعضهم التصور وظنوا أن من خلق الكون ترك النواميس لتعمل ، وتناسوا أن الخالق لا يباشر سلطانه فى الكون مرة واحدة . لذلك جاء الرسل بالمعجزات التى تخرق النواميس ؛ ليدلنا سبحانه على أنه هو الذى خلق ، وله قيومية على ما خلق ، فليست المسألة مسألة نواميس تعمل بذاتها ،بل شاء سبحانه أن يدلنا على عدم الآلية فى الكون .

ونحن نعلم أن الآلية التى يصممها البشر فى بعض المعدات تتسبب فى إحداث جمود ، فالعقل الإلكترونى ليست له قيومية على المعلومات المختزنة فيه ، فلا يستطيع أن يخفى منها شيئاً إذا طلبت منه .

أما عقل الإنسان فله سيطرة على معلوماته ويستطيع أن يخفى ما شاء منها ، ولذلك قال الحق سبحانه :

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ㉚ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ .. ㉛ ﴾ [النور] .

(٢) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ③ ﴾[فاطر] ، فالنعمة موجودة أوجدها الخالق سبحانه في الكون ، وطرأ الإنسان على الكون، ولكنه تغافل فاحتاج إلى التذكرة من خالقه .

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا [1] الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [البقرة]

فما دام قيل للإنسان : لا تكتم الحق . إذن : فله قدرة على الإخفاء .

والوردة الطبيعية - على سبيل المثال - حيويتها في ذبولها على عكس الوردة الصناعية التي تظل على جمودها ليس فيها حياة .

والحق حين يقول : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [المؤمنون]

أو ﴿ أَفَلَا تَـذَكَّرُونَ .. ﴿٤﴾ ﴾ [السجدة]

فهو يحرّض الإنسان على أن يتذكر ، ويتفكر ، ويعتبر . ولو كان القرآن يريد أن يخدع الإنسان ، لما أثار انتباهه إلى ضرورة التذكر والتفكر والتدبر والاعتبار .

وأضـرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى : هب أنك ذهبت إلى مـحل للصوف لتشترى قماشاً متميزاً ، فتجد البائع يفرد أمامك القماش ، ويشده بيديه ليبين لك متانته ، ثم يأخذ منه خيطاً ويحرقه ليبين لك أنه صوف خالص نقي ، إن هذا البائع يحاول أن يشرح لك خبايا صناعة الصوف ؛ لأنه واثق من جودة ما يبيع .

هذا ما يحدث فيما بين البشر ، فما بالنا حين يعرض خالق الكون على مخلوقاته أسرار الكون ويدعوهم عبر منهجه إلى التذكُّر والتعقُّل والتفكُّر والتدبُّر والاعتبار .

والحـق سبـحانه يطلب منا ذلك ثقـة منه فى أن الإنسـان منا ، إن فعل ذلك ؛ فسيصل إلى مراد الحق من الخلق .

---

(١) التبس عليه الأمر : اختلط واشتبه . التلبيس : كالتدليس والتخليط . إلباس الحق بالباطل : خلطه به ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنعام] .

وإياكم أن تظنوا أن الله خلَق لكم ، ثم خلَق لكم ، ثم أنزل لكم المنهج ليسعد حياتكم في الدنيا والآخرة ، ثم اعتزلكم . لا ، بل هو قيُّوم حياتكم ولا تأخذه سنةٌ ولا نوم ، ولا يفلت منه شيء ، ولا أحد بقادر على أن يختلس منه شيئا .

وفي الحديث القدسي : « يا عبادي إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم فالخلل في إيمانكم . وإن كنتم تعتقدون أني أراكم فَلِم جعلتموني أهون الناظرين إليكم » .

وأنت في الحياة اليومية تعرف أن أحداً لا يقترب من إنسان قوي منتبه .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ[1] وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

وحين يقول سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ فهذا إعلام لكل الخلق أن كل الأمور معلومة له سبحانه ، فقد أنزل التكليف الذي قد يُطاع ؛ وقد يُعصى . فمن أطاع يفرح بقوله سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ ، ومن عصى يحزن ؛ لأنه سيلقى عقاب العصاة حين يرجع إلى الله[2] .

(١) حميم : ماء شديد الحرارة والسخونة .

(٢) وقد دلَّ القرآن على أن المؤمنين رغم طاعتهم لله إلا أنك تجدهم مشفقين من يوم القيامة وما فيه من أهوال وهذا لعظم إيمانهم بأن الله سريع الحساب وأنه سبحانه شديد العقاب ؛ ولأنهم يعملون الطاعات ويخافون ألا تقبل ، ويقعون في المعاصي ويخشون ألاَّ يُغفر لهم . يقول سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنبياء] .

ونجد القرآن يقول مرة : «يُرْجَعُون» ومرة يقول : « يَرْجعون»[1] ، فمن عمل صالحاً ؛ فهو يفرح بالرجوع إلى الله ، ومن عصى وكَفر ؛ فهو يحزن ويخاف ويتردد ويحاول ألا يرجع ، لكنه يُرجَع رغم أنفه ، والحق سبحانه يقول: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ[2] إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣)﴾ . [الطور]

وقوله سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ... (٤)﴾ . [يونس]

وسُمِّى هذا المرجع في نفس الآية : ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا .. (٤)﴾ [يونس]

ولقائل أن يقول: ولكن الوعد يطلق على الأمر الذى سيأتى بخير ، فإن كان المرجع للطائع فهذا هو الخير ، ولكن العاصى لن يرى فى الرجوع خيراً ، فلماذا لم يقل الله : إن المرجع للعاصى وعيد ؟

وأقول : إن الحق سبحانه إنما ينبه الإنسان لما ينتظره في المستقبل ، ويعظه ، وترك له الاختيار ، وهذا تقديم للخير ، وهكذا تصبح المسألة كلها وعْداً . والصيغة التى يتقدم فيها المجرور رغم أن من حقه التأخير ، فهى تعنى تفرُّد المرجع ، فكلنا نرجع إليه سبحانه ، مثل قوله سبحانه :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. (٥)﴾ . [الفاتحة]

إذن: فالطائع يفرح بجزاء الله له ، وعلى العاصي أن يراجع نفسه قبل أن

---

(١) ورد قوله تعالى ﴿ يُرْجَعُونَ﴾ فى ستة مواضع من القرآن الكريم: فى آل عمران (٨٣) والأنعام (٣٦) ومريم (٤٠) والنور (٦٤) والقصص (٣٩) وغافر (٧٧) .

* أما قوله سبحانه : ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فقد وردت ستة عشر مرة : [البقرة : ١٨] ، [آل عمران : ٧٢] ، [الأعراف : ١٦٨ ، ١٧٤] ، [يوسف : ٦٢] ، [الأنبياء : ٥٨ ، ٩٥] ، [النمل : ٢٨] ، [الروم : ٤١] ، [السجدة : ٢١] ، [يس : ٣١ ، ٥٠ ، ٦٧] ، [الزخرف : ٢٨ ، ٤٨] ، [الأحقاف : ٢٧] .

(٢) يدعّون: يُدفعون دفعاً عنيفاً . والدَّعّ: الطرد والدفع . قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢)﴾ [الماعون] .

يرجع إلى الله . وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - أنت تنبه التلاميذ إلى أن يذاكروا طوال العام ، فالذى يذاكر فعلاً ، يفرح بالامتحان ؛ لأنه سوف ينجح فيه ، والذى لا يذاكر قد يراجع نفسه ويقبل على المذاكرة خوفاً من الرسوب ، والتذكير لون من ألوان الإنذار ؛ ليتهيب الموقف ويرتدع ، وهكذا يصير التذكير وعداً لا وعيداً .

ويضيف الحق سبحانه لوصف وعده بأنه حق ، فيقول : ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ ولقائل أن يقول : أليس كل وعد من الله حقاً ؟ ونقول : نعم . كل وعد من الله هو حق ، وشاء الحق سبحانه هنا أن يَصِفَ وعده بأنه حق ليذكرنا بأن الحق هو الشيء الثابت ؛ فإن خُيِّل إليك في بعض الأوقات أن الباطل هو السائد والسيد ، فلتعلم أن الباطل لا ثبات له ولا سيادة .

وسبحانه يقول :

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا [1] رَّابِيًا [2] وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً [3] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾ . [الرعد]

فحين ينزل المطر نجد كل واد يأخذ من الماء على قَدْر حاجته ، وساعة ينزل المطر ويتجمع ، نجد القشَّ يطفو ومعه الحشائش والأشياء التى لا فائدة منها ؛ لأن الماء فى لحظة النزول إنما يُنظف المكان الذى ينزل عليه ؛ لذلك تطفو الأشياء الخفيفة وغير المفيدة .

---

(١) الزَّبَد : هو ما يعلو ماء البحر إذا هاج موجُه . وبحر مُزْبِدٌ ، أى : مائج يقذف بالزَّبَد . وزبَد الماء : طفاوتُه وقَذَاهُ . والجمع : أزباد .
(٢) رابياً : مرتفعاً ؛ لأنه يكون أعلى سطح الماء .
(٣) جفاء السيل : هو ما يقذفه من الزَّبَد والوَسَخ ونحوهما .

كذلك الباطل إنما يطفو على السطح لكنه لا يفيد ولا يزعزع الحق الذى يستقر وينفع الأرض والناس ، وطفو الباطل إنما هو تنبيه لجنود الحق ، والباطل مَثَلُه مَثَلُ الألم الذى ينبه للمرض ، وأخطر الأمراض هو الذى لا ألم فيه ، فيستفحل إلى الدرجة التى يصبح علاجه صعباً ومستحيلاً .

إذن : فالألم كالباطل ينبه جنود الحق ؛ ولذلك أنت تلحظ أنه إذا ما أهيج الإسلام من أى عدو ، تجد الحماسة وقد دبَّتْ فى الناس جميعاً ، حركة وتعاوناً ، ونسياناً للأحقاد ؛ للدفاع عن الإسلام .

وفى الأمراض التى تنتقل ببعض الڤيروسات ، نجد الأطباء وهم يُطَعِّمون الناس من نفس ميكروبات أو ڤيروسات المرض بجرعات ضعيفة لتستثير مقاومة الجسم ، إذن : فالباطل جندى من جنود الحق ، كما أن الألم جندى من جنود العافية .

وإذا كان الحق هو القائل : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ[1] جَمِيعًا﴾ فلا بد أنه الوعد الحق ؛ لأنه سبحانه يملك ما يعد به ، وسبحانه منزه عن الكذب وعن الخديعة ؛ لأنه القائل : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢)﴾ [النساء]

ولأنه أقوى مما خلق ؛ وممَّنْ خلق . ولا تخونه إمكاناته ؛ لأنه يملك الكون كله .

وكلمة «الرجوع» فى قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ تفيد أن تكون

---

(١) مادة : رجع من باب ضرب - يرجع رجوعاً ، ورجع عاد إلى مكان منه قد بدأ ، فهو هنا لازم ، ورجعه غيره أعاده ورده متعد بنفسه ، ورجع بصره رده مرة بعد مرة فمن اللازم قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ .. (١٥٠)﴾ [الأعراف] . أى : عاد ، ومن المتعدى : ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ .. (٨٣)﴾ [التوبة] . أى : أعادك وردك ، ومن المعنوى قوله : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ .. (٤)﴾ [الملك] - القاموس القويم صـ ٢٥٦ ، ٢٥٧

على شيء ثم تفارق هذا الشيء وبعد ذلك ترجع له ، فهى وجود أولاً ، ثم خروج عن الوجود ، ثم عودة إلى الوجود الأول . فإذا كنت فى مكان ، ثم ذهبت إلى مكان آخر ، وترجع إلى المكان الأول ، فهذا هو الرجوع .

والقول هنا يفيد أننا سنموت جميعاً ، مصداقاً لقوله الحق : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ [الرحمن]

وقد قال الكافرون ما ذكره القرآن : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) ﴾ [ق].

كأنهم قد استبعدوا فكرة البعث ، وقالوا أيضاً : ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا [1] فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ [السجدة] .

أى : أنهم تساءلوا : هل بعد الموت والدفن وتحلُّل الجثمان [2] إلى عناصر تمتزج بعناصر الأرض ، أبعد كل ذلك بعث ونشور [3] ؟

وجاء هنا قوله سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ ليفيد أن الخروج إلى الوجود بالميلاد إلى الحياة ، ثم بعد ذلك خروج على

---

(١) ضللنا فى الأرض أى : ذهب أثرنا فى الأرض وخفينا بسبب تحلل أجسامنا .

(٢) الجثمان : الجسد . قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) ﴾ [هود] أى : أجساداً ملقاة فى الأرض .

(٣) النشور : بَعْث الموتى يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) ﴾ [عبس] أى : أحياه وبعثه .
وقال : ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ﴾ [الملك] ومنه يوم النشور : يوم القيامة .
وقضية البعث والنشور إحدى أربع قضايا رئيسية كان الكافرون ينكرونها ، ويحكى عنهم القرآن قولهم : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ﴾ [الإسراء] ويقول سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [يس] .

الحياة إلى مقابلها وهو الموت ، ومن بعد ذلك البعث .

وقد وقف الكافرون عند هذه النقطة واستبعدوها ، فأراد الله أن يبيّن لنا هذه المسألة ؛ لأنها تتمة التمسك بالمنهج ، وكأنه يقول لنا : إياكم أن تظنوا أنكم أخذتم الحياة ، وأفلتم بها وتمتعتم ، ثم ينتهي الأمر [1] ؟ لا ، إن هناك بعثاً وحساباً . لذلك قال : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا..(٤)﴾ [يونس]

فإن قال قائل : كيف يكون ذلك ؟ يأتي القول الحق : ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فالذي قدر على أن يخلق من عدم ؛ أيعجز أن يعيد من موجود ؟ إنه الحق القائل :

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾ . [مريم]

فإذا شاء أن يعيدكم فلا تتساءلوا كيف ؟ لأن ذراتكم موجودة ، والحق سبحانه يقول :

﴿أَفَعَيِينَا [2] بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ [3] مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾ [ق]

هكذا يستدل الحق سبحانه بالخلق الأول على إمكان الخلق الثاني ، فإن كنتم تتعجبون من أنكم تعودون بعد أن أوجد الحق أجزاءكم وذراتكم ومواصفاتكم ؛ فانظروا إلى الخلق الأول ؛ فقد خلقكم من لا شيء ؛ أفيعجز أن يعيدكم من شيء ؟ ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ .

---

(١) وفي هذا يقول سبحانه وتعالى : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦)﴾ [القيامة] قال ابن زيد ومجاهد : أيظن ابن آدم أنه يخلى مهملاً فلا يُؤمر ولا يُنْهى . وقيل : أيحسب الإنسان أن يُترك في قبره كذلك أبداً لا يبعث . ذكره القرطبي في تفسيره (١٠/ ٧١٥٢) .

(٢) عَيَّ الإنسان بأمر : عجز عنه .

(٣) اللبس : اختلاط الأمر ، والشك .

وجاء الفلاسفة وأقاموا ضجة [1] ، فجاء الحق سبحانه وتعالى من الكون بالأدلة ، وقال :

﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ... ⑤ ﴾ [الحج]

أى : أرضاً ميتة وليس فيها أى حياة .

﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ [2] وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ⑤ ﴾ [الحج]

إذن : فلا عجب أن تصدر حياة عن موت ، وأنتم ترون ذلك كل ساعة . والحياة التى تراها أمامك ليست إلا دورة ؛ لأن الله حين خلق الكون ، خلق عناصره ، ولا زيادة على هذه العناصر .

وخذ مادة واحدة وهى المياه ، فمنذ أن خلق الحق سبحانه المياه لم تزد ولم تنقص ، ويشرب منها الإنسان والحيوان ، ولو أخذ كل واحد فى حياته أىّ قدر من المياه ، تظل المياه كما هى ؛ لأن هذا الإنسان يفرز ما شربه على هيئة عرق وإفرازات مختلفة ، وكل ذلك يخرج منه ، ويبقى ما يمثل وزنه .

إذن : فما أخذته من المياه إنما يخرج منك مختلطاً بأشياء نتيجة التفاعل الذى يعطيك طاقة الحياة ، وبعد ذلك يتبخر الماء ، وعملية التبخير هى

---

(١) قامت ضجة الفلاسفة على شبهات وافتراضات نشأت فى عقولهم عن استحالة البعث بعد الموت وأعطوا أمثلة ظنّوها تؤيد فكرهم السقيم منها : من أكلته أسماك وحيوانات البحر أو أكله أسد أو وحوش مفترسة ، وهى شبهات تقوم على أساس ما ذكره فضيلة الشيخ صفحة ٥٧١٤ عن مذهب الفلاسفة فى أن الله قد خلق الكون ثم ترك عناصره تتفاعل بقوانينها الذاتية ، أى : أن الله ليست له قيومية على كونه . وقد رد القرآن على هذه الشبهات بوضوح بقول الله سبحانه عن خلق الله هذا الكون وقيوميته عليه وعلمه الذى يسع كل جزئيات الكون فلا تغيب عنه مثقال ذرة وهو سبحانه القادر الذى لا يخرج عن قدرته شىء . وما دام الله قد خلق الكون من عدم ، فإن إعادته بعد فنائه أهون عليه سبحانه ، ويقول عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ⑳ ﴾ [الروم] . ويقول تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ㉘ ﴾ [البقرة] .

(٢) رَبَتْ : عَظُمَت وانتفخت وزادت .

تقطير [1] للماء ، فأنت إذا أردت تقطير المياه تسخنها إلى درجة الغليان فتتحول بعد ذلك إلى بخار ، ثم تكثفها [2] لتعود مياهاً من جديد.

إذن : فالماء له دورة ، نروى منه الزرع ؛ فيأخذ المائية ويصير أخضر اللون ، ويخرج منه الماء الزائد عن حاجته فى عملية النتح [3] ، ثم يجف ، بعد أن تخرج منه المياه بالتبخر ، وكل ذلك دون أن يشعر أحد بحكاية التبخير هذه.

وأنت حين تُحضِر كوباً من الماء المقطر فى الصيدلية ، تتكلف كثيراً ، وتحتاج موقداً وإناءً وأنابيب ، ثم إلى مياه أخرى باردة لتكثف البخار ، ولكن هذه مسألة تحدث فى الكون ملايين المرات ، ولا يدرى بها أحد.

وبعد أن تتبخر المياه تصير سحاباً ، ثم ينهمر المطر وهو مياه مقطّرة. ولذلك تجد أن مساحة رقعة الماء ثلاثة أرباع الأرض لتخدم الربع الباقى (اليابسة) ؛ لأن الله يريد اتساع سطح الأرض ، وهذا الاتساع هو الذى يساعد على التقطير والتبخير والتكثيف.

مثلما تجىء أنت بكوب ماء ، وتضعه فى حجرة ، ثم تغيب شهراً عن الحجرة ، فعند عودتك إليها قد تجد الكوب نقص ما مقداره نصف سنتيمتر تقريباً ، لكنك إن أخذت كوب الماء نفسه وألقيت ما فيه من ماء ليسيح على أرض الغرفة ، فستجد أن الأرض جفت خلال ساعات قليلة ، وهكذا نجد أن اتساع الرقعة إنما يساعد على سرعة البخر.

(١) التقطير : تنقية الماء وتصفيته مما قد يعلق به من مواد غريبة ضارة.
والتقطير : تحويل السائل إلى بخار بالحرارة ثم تبريده ليعود سائلاً كما كان وذلك بجهاز التقطير (المعجم الوسيط).
والبخار : كل ما يصعد كالدخان من السوائل الحارة (المعجم الوسيط) وتبخير الماء : تسخينه حتى يتحول إلى حالته الغازية ويتصاعد على هيئة بخار.

(٢) التكثيف : هو تعريض بخار الماء إلى سطح بارد ليتكثف عليه ويبرد فيعود إلى حالته السائلة [بواسطة جهاز التقطير].

(٣) نتح : رشح ، يقال : نتح العرق من الجلد ، ونتح الإناء بما فيه ونتحه الحرّ ، ونتح الماء من النبات نتحاً أى : خرج منه الماء الزائد عن حاجته. [المعجم الوسيط «بتصرف»].

إذن: الكمية التى خلقها الله من المياه كما هى، لم تَزِدْ ولم تنقص، تدور الدورة التى شاءها الحق، وهكذا نرى أن الشىء يعود إلى أصله مرة أخرى، ويمكن أن نرى ذلك فى كل أوجه الحياة، والحق سبحانه يقول:

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا [1] (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) ﴾. [الذاريات]

يقسم الحق سبحانه هنا بالرياح التى تحمل السحاب، وتمطر كل سحابة على الموقع المحدَّد لها بأمر من الله، ويلفتنا الحق سبحانه هنا إلى دورة الماء، الذى هو قوام الحياة، بأن الوعد منه سبحانه يتحقق حتماً.

تأمّل الوردة، تجد لها نعومة ونضارة؛ لأن فيها شيئاً كثيراً من المائية، ولها لون جميل ورائحة ذكية تفوح، فإذا قطفتها تتساقط أوراقها وتجف؛ لأن ما فيها من المائية يتبخر؛ فما أخذته الوردة من الماء عاد إلى مخزنه مرة أخرى، وكذلك الرائحة تظل فى أوراقها الذابلة إلى أن تنتهى، وكذلك اللون، ثم تخرج وردة جديدة.

إذن: حياة كل كائن فى الوجود والعالم فى حركته ناشئة عن هذه الدورة، فإذا كانت مائية حياتكم تدور؛ أتستبعد أن تدور أنت بمكوناتك؟ هَبْ أن إنساناً وُجد ومات؛ بخروج الروح من الجسد ويُوارى الجثمان ويتبخر ما فيه من ماء، وتتحلل مواد الجثمان مع عناصر الأرض

(١) الذاريات: الرياح. ذَرَت الريح التراب وغيره تذروه ذرواً: أطارته وأذهبته. قال تعالى: ﴿ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ (٤٥) ﴾ [الكهف] والحاملات وقراً: السحاب. والجاريات يسراً: السفن. والمقسمات أمراً: الملائكة. وقد ثبت عن الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه صعد منبر الكوفة، فقال: لا تسألونى عن آية فى كتاب الله تعالى ولا عن سنة عن رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك، فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) ﴾ قال على رضى الله عنه: الريح. قال: ﴿ فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا (٢) ﴾ قال: السحاب. قال: ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) ﴾ قال: السفن، قال: ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) ﴾ قال رضى الله عنه: الملائكة. [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٤/ ٢٣١].

لتصير تراباً ، فهل يعجز الحق أن يعيد إلى الوجود أبعاض هذا الإنسان؟ طبعاً لا يمكن أن يعجز.

الحياة - إذن - احتكاك هذه الدورات لتلك العناصر ، فلم يزد شيء عليها ، ولم ينقص منها شيء.

واقرأ القرآن بتبصر تجد قوله الحق:

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) ﴾ [ق]

وهكذا يبيِّن لنا الحقّ أن العناصر كلها موجودة في الكون ، قد تزيد في مخلوق عن الآخر ، لكن المجموع الكلي لكل العناصر ثابت ، وإذا كان العلم قد توصل إلى أن هناك ستة عشر عنصراً تكوِّن الكائنات [(١)] ، فهذه العناصر ثابتة الكمية ، وإن اكتشفوا زيادة في عددها ، فالزيادة في عدد العناصر ستكون أيضاً ثابتة الكَمِّ لكل عنصر.

وقال العلماء: إن الستة عشر عنصراً هي: الأوكسوجين، والكربون ، والهيدروجين، والنتروجين، والمغنسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، وغيرها.

كل هذه العناصر تعود إلى أصلها بعد أن تموت الكائنات وتتحلل.

هكذا يصدق قول الحق:

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ... (٤) ﴾ [ق]

وقد حاول بعض الفلاسفة أن يعترضوا اعتراضاً ثانياً وقالوا: هب أن إنساناً مات ، ثم تحللت عناصره في الأرض . ألا تذهب عناصره إلى

(١) كل كشف هو من أسرار غيبه سبحانه ، وله ساعة ميلاد يتجلى بها الخالق على كل من يتعامل مع الكون بحثاً وتأملاً وانتفاعاً ، وما دام القرآن خالداً فمدد الكشف سيظل وارداً ، وفي وروده انتفاع نحو المراد بقول الحق: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾ [الكهف].

كائنات أخرى ، مثل شجرة أنتجت ثمرة أوغير ذلك ، ثم أكلها إنسان آخر ، فدخلت فى أجزائه ، إذن: فمن مات ونشأت على أنقاضه ثمرة ، أو غير ذلك ، ودخلت المكونات فى إنسان آخر ، فكيف يبعث الله كلَّ إنسان من جديد ؟

ونقول: أنت عرفت شيئاً ، وغابت عنك أشياء. انظر مثلاً إلى السِّمنة والنحافة كظاهرة موجودة فى الناس وتراها كل يوم ، ومعنى السمنة أن كمية من مادة معينة تزيد فى الإنسان السمين أكثر من مادة الإنسان الآخر النحيف . وقد يطرأ على السمين ما يجعله نحيفاً أو العكس . فهل هذا يغيِّر من شخصيته ؟ طبعاً لا ، وهكذا نجد فارقاً بين المشخصات وبين تكوين المشخصات من العناصر.

وما دام الحق سبحانه قد أعلمنا أنه لا شيء ينقص من الأرض إلا بمقدار مكونات الكائنات الموجودة عليها ، فالعناصر التى فى الأرض تكفى كل الكائنات ، ويوزعها سبحانه بالنسب اللازمة ، وأنت إن جمعت هذه العناصر فستجدها ثابتة الكم وإن اختلفت فى كيفية تكوين الكائنات.

مثال ذلك: أنك تجد إنساناً وزنه مائة كيلو جرام ، ويمرض ؛ فيهزل وينقص وزنه إلى سبعين كيلو جراما ، ومعنى ذلك أن الثلاثين كيلو جراما الأخرى ذهبت إلى الأرض ، فلكل جسم قاعدة يقف عندها الوزن إلى سن معينة ، وتُعتبر هذه هى القاعدة التى يزيد فوقها الوزن ، أو يقل عنها حسب ظروف التغذية والصحة.

وأنت ترى الطفل يفرز أقل مما يتناول من الغذاء ؛ حتى ينمو ، ولو كان يُخرج إفرازات تساوى - فى الكمية - ما يأكل ويشرب لَمَا كبر. ومن بعد ذلك يكبر إلى أن يصل إلى وزن ثابت تقريباً ، فتخرج منه إفرازات تساوى

ما يدخل إليه ، ثم تأتى الشيخوخة فيخف الوزن ، وهذا يعنى أن ما يخرج منه أكثر مما يدخل إليه ؛ فتنشأ النحافة .

وهَبْ أن طبيباً حاذقاً [١] استطاع أن يعلم الداء الذى يسبب إصابة مريض ما بالهزال ، وأعطاه من الدواء ما جعله يسترد عافيته [٢] ومعها ما فُقد من الوزن ، وتحسن تغذية هذا المريض أثناء فترة العلاج ، فهل تتغير شخصية هذا المريض ؟ طبعاً لا ؛ لأن ما خرج منه أثناء الهزال ذهب إلى الأرض ، ثم استرد مثله من الأغذية أثناء الشفاء .

إذن : فلا تقل : إن هناك شيئاً نقص ، فعند الله كتاب حفيظ فيه مكونات كل الكون ، ويأتى بعناصر معينة ، ويأمرها بـ «كن» فتكون إنساناً ، أو تكون كائناً آخر حسب مشيئة الله سبحانه .

وإذا كنا نتحدث الآن كيميائياً فنحن نتكلم بذلك ؛ ليثبت عقدياً [٣] وعقلياً ؛ لأننا آمنا بأن هناك منهجاً من المكلِّف ، والمنهج عُرْضة لأن يطاع أو يعصى ، ومَنْ يُطع الله فى المنهج ، فهو يحدد حريته ، والذى لم يُطع الله واستسلم للضياع فهو الخاسر ؛ لأن منطق العقل يؤكد أن من يأخذ المنهج ويلتزم به ويكبح شهواته [٤] ؛ لا يمكن أن يستوى مع من

---

(١) الحذق : المهارة فى العمل . تقول : حَذَق فلان فى عمله فهو حاذق ماهر .

(٢) مادة : عفا تقول مصادر اللغة عفا المنزل يعفو عَفْواً وعُفُواً وعفاءً . أى : درس ، وعفته الريح يستعمل لازماً ومتعدياً . ومنه : عفا الله عنك أى : محا ذنوبك ، وعفوت عن الحق : أسقطته - وعافاه الله محا عنه الأسقام . والعافية اسم منه ، وهى مصدر جاء على فاعلة كناشئة - المصباح صـ ٤١٩ .

(٣) عَقَدىٌ : نسبة إلى العقيدة ، والعقيدة : صيغة مبالغة من العَقْد . والعقد : العهد والإيمان . والعقيدة : الحكم الذى لا يقبل الشك فيه لدى معتقده . والعقيدة الدينية : يقصد بها الإيمان والاعتقاد فى الدين ، كعقيدة وجود الله ، وبعثة الرسل . والعقيدة الإسلامية هى الاعتقاد بصحة الدين الإسلامى وصدقه .

(٤) يكبح شهواته : يتحكم فيها فلا تطغى عليه ، وهذا كالرجل الممسك بلجام فرسه أو دابته حتى لا تجمح منه وتفلت من قيادها . (لسان العرب مادة ك ب ح) .

عبث [1] ولا بد أن يفترض منطق العقل أن يوجد بعث يجازى بالطيبات مَنْ سار على المنهج ، ويعاقب مَنْ خرج على المنهج.

وما دام قد وجد إله ، ووجد بلاغ عن الله بواسطة الرسل ، ووجد تكليف بـ«افعل» و«لا تفعل» ، ووجدت طاعة للتكليف ، ومعصية للتكليف ، إذن : لا بد بعد هذه الحياة من بعث ، ويأخذ من أحسنَ جزاءه ، وينال مَنْ أساء عقابه ؛ ولذلك قال الحق:

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ... (٤)﴾ [يونس]

جاء هذا القول مطمئناً الملتزمين بالمنهج بأن هناك بعثاً وحساباً ؛ لأن المؤمن المطيع لا بد أن ينال حسن الثواب ، وأن ينال العاصى الشرير الذى شقيت الدنيا كلها بعصيانه العقاب، ولذلك لا بد من الإعادة ؛ ليجزى الله كل واحد بعمله بالقسط [2]. والقسط - كما أوضحنا من قبل - معناه العدل ، والمادة هى القاف والسين والطاء. ننطقها مرة «القسط» بكسر القاف. وننطقها مرة أخرى «القسط» بفتح القاف والقسط «بالكسر» هو العدل ؛ والقسط «بالفتح» هو الظلم ، ولذلك نجد قوله الحق:

---

(١) وهذا هو ميزان العدل الذى يثاب به الطائع ويجازى به العاصى ، يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١)﴾ [الجاثية].

(٢) قسط : من أسماء الله تعالى الحسنى «المُقْسِط» : هو العادل. يقال: أقسَطَ، يُقْسِط، فهو مُقْسِط إذا عَدَلَ. والقِسْط والإقساط: العدل. يقال: أقْسَطَ وقَسَطَ إذا عدل. قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ (١٥٢)﴾ [الأنعام] وقال سبحانه : ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (٣٥)﴾ [الإسراء] وهو أقوم الموازين وقال عز وجل : ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)﴾ [الحجرات].
ومن معانى القِسْط أيضاً: الحصّة والنصيب، والميزان، والمكيال. وقَسَّط الشىء: فرّقه وقسّمه.
أما القَسْط والقُسُوط فهو الجَوْر والعدول عن الحق. [اللسان : مادة (قسط)].

﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا[(١)] (١٥) ﴾ [الجن]

والمقصود بالقاسطين: الجائرون على حقوق غيرهم.

ونجد قوله الحق:

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) ﴾ [المائدة]

والمقْسطون: هم العادلون بين الناس.

إذن: فهناك «قِسْط» و«قَسْط»، وهناك شيء اسمه «قَسَط»[(٢)] بالفتحتين وهو الانحراف فى الرِّجلين. إلا أن المستعمل فى كلمة «قِسْط» هنا مقصود به العدل، واسم الفاعل منها «قاسط» واستعملت فى الجوْر. وهى مأخوذة من القَسْط لا من القِسْط، وتجد من أسماء الله «المُقسط»[(٣)]، ولم يصف نفسه بالقاسط بمعَنى العادل، أى: ابتدأ بالعدل أولاً، وشاء سبحانه فوصف نفسه بالمُقْسط؛ لأنه هو الذى يرفع الجور فيحقق العدل.

وفى الآية التى نحن بصددها يقول الحق سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أى: جزاء منه بالعدل، وأيضاً يمكن أن نقول: إنه سبحانه يجزيهم؛ لأنهم عدلوا فى العقيدة؛ لأن القرآن الحكيم - كما نعلم - جاء حاكماً وفيصلاً بين قضايا العقائد وقضايا الاختيار فى الأفعال

(١) الحطب: ما أعدّ من الشجر لإشعال النار. والمراد أنهم سيكونون فى عذاب شديد؛ إذ جعلهم الله فى جهنم بمثابة الحطب للنار؛ زيادة فى عذابهم، وتحقيراً لشأنهم.

(٢) القَسَط: عيب فى الرِّجْل، والرِّجْل القَسْطاء هى التى فى ساقها اعوجاج حتى تتباعد القدمان وتنضم الساقان. [اللسان: مادة (قسط)].

(٣) اسم الله «المقسط» لم يرد به القرآن اسماً من أسماء الله تصريحاً، بل على سبيل الإشارة، قال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ (١٨) ﴾ [آل عمران]، وهو من صفات الأفعال، وعن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٩) وأحمد (٤/ ٤٠٠، ٤٠١) وابن ماجه فى سننه (١٩٥).

وقضايا الأخلاق ، وهؤلاء قد أخذوا المنهج بدون ظلم لله فلم يشركوا به أحداً ، والحق سبحانه هو القائل:

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾. [لقمان]

إذن: فهم بعدلهم وبقسطهم فى أمر العقيدة وأنهم لم يرتكبوا إثم الشرك الذى هو ظلم عظيم[1]؛ وبذلك لم يظلموا أنفسهم أيضاً ، ولم يأخذ واحد منهم لنفسه متعة عاجلة ؛ لذلك أنقذهم الله من الشقاء الأبدى الطويل ، وهم لم يظلموا الناس. ولكل ما تقدم لا بد أن يجزيهم الله على العمل الصالح بسبب عدلهم وقسطهم.

وقد يقال: إن الجزاء بالقسط لا زيادة فيه ولا نقصان ، فإذا كان الجزاء من الله ، فالعدل على مقتضى التشريع أن تكون الحسنة بعشر أمثالها ، ويضاعف سبحانه لمن شاء[2] ، هذا هو عدل الله بالتشريع. أو أن الجزاء يُعطى بلا زيادة ولا نقصان جزاء العدل ، ولكن ذلك لم يحدد الفضل فى هذه الآية. ولذلك حدث إشكال بين علماء الكلام فى قول الله سبحانه:

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام] قال أصحاب رسول الله ﷺ: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال ﷺ: «إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان] إنما هو الشرك». أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢) وأحمد فى مسنده (١/ ٣٧٨).

(٢) يقول سبحانه وتعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام] ، وكان العدل والقسط يقتضى أن يكون جزاء الحسنة حسنة مثلها ، وجزاء السيئة سيئة مثلها ، ولكن فضل الله ورحمته أن الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، وعلى هذا دلَّتْ أحاديث رسول الله ﷺ ، فعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى قال: «إن ربكم عز وجل رحيم. من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له واحدة». أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣١) وأحمد فى مسنده (١/ ٢٧٩) واللفظ لأحمد. ومن دعاء العارفين: اللهم عاملنا بفضلك لا بعدلك وبإحسانك لا بميزانك.

﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (٣٩)﴾ [النجم]

فقال بعضهم: إذا كان الإنسان لا يأخذ إلا جزاء ما سعى ، فكيف يُجزى جزاء على الحسنة بعشر أمثالها ؟ وكذلك ماذا عن صلاة الجنازة ؟ وهل ينتفع بها الميت حين ندعو له بالمغفرة [1] ؟ وإن كان الإنسان لا يأخذ إلا ما سعى فلن ينتفع بها الميت ، فلماذا كلفنا الحق سبحانه بصلاة الجنازة كفرض كفاية ، لا فرض عين [2] ؟

ونقول: إن وجود اللام في قوله : ﴿وأن ليس للإنسان﴾ يفيد المِلْك ، أي: الحق ، والآية تعطى الحق ولكنها لم تمنع الفضل ، أو نقول: هل نصلى على كل ميت ؟ نحن نصلى على الميت المؤمن ، والإيمان من عمله ، وهو يُجَازى بصلاتنا عليه ، أي: جزاء عمله.

ويقول سبحانه : ﴿والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ وهكذا نعرف أن العذاب الأليم قد جاء لهم بسبب الكفر ، مثلما يجيء الجزاء على الأعمال الصالحة للمقابل لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح.

إذن: فالقسط هنا تعود على قسط الله ، وهو العدل ، وكذلك قسطهم هم ؛ لأنهم حكموا في الربوبية بالعدل . أما الكافرون ، فالعدل معهم أن

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء» أخرجه ابن ماجه في سننه (١٤٩٧) وأبو داود (٣١٩٧) وفيه عنعنة ابن إسحاق ، قال شمس الحق في شرحه لسنن أبي داود (٨/ ٣٤٤) : «لكن أخرجه ابن حبان من طريق أخرى عنه مصرحاً بالسماع وصححه».
ومن الأدعية المأثورة الواردة في هذا ما ذكره أبو هريرة قال: «كان رسول الله ﷺ إذا صلى على جنازة، يقول : «اللهم اغفر لحينا وميتنا ، وشاهدنا وغائبنا ، وصغيرنا وكبيرنا ، وذكرنا وأنثانا . اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان. اللهم لا تحرمنا أجره ولا تضلنا بعده».
أخرجه ابن ماجه في سننه (١٤٩٨) وأبو داود (٣١٩٩) وأحمد في مسنده (٢/ ٣٦٨) .

(٢) معنى فرض الكفاية أنه إذا قام به بعض المسلمين سقط عن الآخرين، وإذا لم يقم به أحد أثم الجميع.
أما فرض العين : فهو الفرض الذي يتوجب على كل فرد من أفراد المسلمين عمله مثل الصلاة وغيرها من العبادات إذا انتفت الأعذار وتحققت شروطها في حق آحاد المسلمين.

يذيقهم الله شراباً من حميم بما كانوا يكفرون ، وهذا ما يرجح أن القسط هنا هو قسطهم هم .

وكلمة ﴿حَمِيمٍ﴾ مأخوذة من مادة «الحاء» و«الميم» و«الميم» وهى مادة كل موارد معانيها فيها الحرارة والسخونة .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ [1] يَشْوِي الْوُجُوهَ... (٢٩)﴾ [الكهف]

و﴿كَالْمُهْلِ﴾ أى : أنه يغلى ، وحين تكون المادة من غير الماء ، فدرجة حرارتها أثناء الغليان تكون أعلى من درجة حرارة غليان الماء ؛ فالنحاس مثلاً حين يغلى تكون درجته أعلى من درجة غليان الماء ، وكذلك الحديد والذهب وغيرها ، وسبحانه يقول :

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ [2] (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ [3] (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦)﴾ [الدخان]

---

(١) المهل : النحاس المذاب أو الزيت المغلى . قال تعالى : ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨)﴾ [المعارج] . [اللسان : مادة (مهل)] . ومن معانى المهل أيضاً : الماء الغليظ مثل دردى الزيت . وقيل : هو كالدم والقيح .

(٢) الزقُّوم : طعام أهل النار . قال ابن سيده : لما أنزلت آية الزقوم ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤)﴾ [الدخان] لم يعرفه قريش ، فقال أبو جهل : إن هذا لشجر ما ينبت فى بلادنا ، فمن منكم يعرف الزقوم؟ فقال رجل قدم عليهم من إفريقية : الزقوم بلغة إفريقية : الزبد بالتمر ؛ فقال أبو جهل : يا جارية ، هاتى لنا تمراً وزبداً نزدقمه ؛ فجعلوا يأكلون منه ويقولون : أفبهذا يخوفنا محمد فى الآخرة ؟ فبيّن الله تعالى ذلك فى آية أخرى ، فقال فى صفتها : ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ [الصافات] . وقال الأزهرى : افتتن بذكر هذه الشجرة جماعات من مشركى مكة ، فقال أبو جهل : ما نعرف الزقوم إلا أكل التمر بالزبد ، فقال لجاريته : زقّمينا . وقال رجل آخر من المشركين : كيف يكون فى النار شجر ، والنار تأكل الشجر ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ (٦٠)﴾ [الإسراء] أى : وما جعلنا هذه الشجرة إلا فتنة للكفار . ومن معانى الزقوم : كل طعام يَقْتُل ، والزَّقْمَة : الطاعون . [اللسان : مادة (زقم)]

(٣) قال الفراء : الأثيمُ الفاجر ، وقال الزّجّاج : عُنى به هنا أبو جهل بن هشام . والأثيم صيغة مبالغة من الإثم ، أى : كثير الذنوب . [اللسان : مادة (أثم)] .

إذن : فدرجة غليان المهل أعلى من درجة غليان الماء ، والمادة كلها تفيد الحرارة.

وإن نظرنا إلى كلمة «حمّام» و«استحم» ، فهى تعنى أن الماء حين ينزل على البدن يكون له ثلاث صور: الصورة الأولى مسح ، والصورة الثانية غسل ، والصورة الثالثة استحمام. والمسح أن تبل الشيء بالماء بدون أن يقطر منه شيء ، والغسل أن تُسَيِّل الماء من الجسد المغسول ، والاستحمام أيضاً فيه سيولة للماء . والغسل للتطهير ، لكن الاستحمام للتنظيف ، فإن أحدثت [1] فأنت تقوم لتتوضأ.

﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ... ⑥ ﴾ [المائدة]

تنفيذاً لأمر الله وهو غسل التطهير ، ويقوم مقامه التراب فى حالة عدم وجود الماء وهو التيمم [2] . أما إذا كانت المسألة تنظيفاً فهى تحتاج إلى الاستحمام ؛ لأن مسام الإنسان لها إفرازات قد تكون دهنية ، وبعد ذلك تطرأ عليها أتربة تسدها ، وهذه المسام أبعاض من الإنسان وأبعاض من تراب طاهر جاء على الجسم ، وهي لا تنجسه ، فإن اغتسلت فيكفى أن تصب الماء على الجسم ، ولو بقى بعض من ذرات التراب على البدن فهذا لا يمنع الطهارة ، لكن حين يستحم الإنسان فهو يأتى بماء حار ؛ ليذيب القذارة وينقّى المسام ، وتخرج بعض الأتربة ومعها الخلايا الجلدية الميتة وكأنها خيوط رفيعة.

---

(١) الإحداث: خروج شيء من أحد السبيلين من فساء أو ضراط أو براز وبول. وكل هذا يوجب الوضوء للصلاة.

(٢) التيمم فى اللغة هو القصد. وفى اصطلاح الشرع هو القصد إلى الصعيد الطاهر وهو كل ما صعد على الأرض من التراب وغيره ، لمسح الوجه واليدين عند فقدان الماء حقيقة أو حكماً ، وكيفية التيمم أن يقدم النية ثم يسمّى الله تعالى ، ويضرب بيديه الصعيد الطاهر ، ويمسح بهما وجهه ويديه إلى الرسغين ، ومن السنة عند البخاري ومسلم (٣٦٨) من حديث عمار بن ياسر أنه لمن تيمم بالتراب أن ينفض يديه وينفخهما منه ، ولا يعفر به وجهه.

إذن: هناك فرق بين الغَسْل وهو للتطهير؛ وبين الاستحمام الذى هو للنظافة. ونأخذ منه الحمام، إذن: مادة الحاء والميم والميم فيها الحرارة [1] وفيها السخونة.

ويقول الحق هنا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾، وكلمة ﴿شَرَابٌ﴾ تفيد الارتواء، فلماذا جاء بها الله هنا؟ إنها تصعيد للعذاب؛ لأن الإنسان يرغب فى الشراب ليرطِّب جوفه، فإذا ألهبه ما يشرب، فهذا أكثر إيلاماً مثل قوله تعالى:

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا [2] يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ [3] الشَّرَابُ ...(٢٩)﴾ [الكهف]

وحين تسمع هذه الآية تجد انبساط الأمل فى صدر الآية ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا﴾ وهم يستشرفون للنجاة، ثم يأتيهم غوث من لون يناسب ما اقترفوه من ذنوب ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾.

إذن: فـ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى: بسبب كفرهم. وعرفنا أنهم كفروا بالقضايا العقدية.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

---

(١) حم الماء يحم حما من باب فرح. قال تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ .. (٧٠)﴾ [الأنعام] اشتدت حرارته فهو حميم أى: ساخن شديد الحرارة ومنه الاستحمام للفعل والحمام للمكان والفعل معاً ويطلق الحميم: على القريب المشفق لأنه ذو حرارة وجدة قال تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١)﴾ [الشعراء].

(٢) يستغيثون: يصرخون طالبين الغوث والماء من شدة العذاب والعطش؛ فيأتيهم الغوث (العون) عذاباً جديداً، ماء شديد السخونة كالزيت المغلى يحرق وجوههم. وهو غوث مناسب لأعمالهم السيئة وذنوبهم وآثامهم فى الدنيا. [اللسان: مادة (غوث)].

(٣) بئس: كلمة تطلق على كل ما يستحق الذمّ الشديد. [اللسان: مادة (بأس)].

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ[1] لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾

وبعد أن بيَّن الحق أنه خلق السماء والأرض وخلق الكون كله وسخره للإنسان جاء لنا بنعم من آياته التى خلقها لنا ، والتى جعلها الله سبحانه وتعالى سبباً لقوام[2] الحياة ؛ فالشمس هى التى تُنضج لنا كل شىء فى الوجود ، وتعطى لكل كائن الإشعاع الخاص به ، كما أن الشمس تبخر المياه - كما قلنا من قبل - لينزل الماء بعد ذلك عذباً فراتاً[3] ، يرتوى منه الإنسان وتشرب منه الأنعام ونروى به الزرع.

والشمس هى الأم لمجموعة من الكواكب التى تدور حولها ، فدورة الأرض حول الشمس تمثل السنة ، ودورة الأرض حول نفسها تمثل اليوم. فيقول الحق سبحانه هنا :

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ ولو نظرت إلى المعنى

---

(١) منازل القمر : مواضع تحركه ، أى : مداره حول الأرض . ومواقعه بين الشمس والأرض ، وتبعاً لتغير هذه المواقع تتغير صورته التى نراه عليها . قال تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يس] ، وقال سبحانه : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنعام].

(٢) قوام كل شىء : أى : ما يقوم به ، وعماد كل شىء ونظامه . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴿٥﴾ ﴾ [النساء] أى : تقوم بها معايشكم من التجارات وغيرها.

(٣) الفرات : الماء الشديد العذوبة . يقال : ماء فرات ، ونهر فرات . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الفرقان] ، وقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ ﴿١٢﴾ ﴾ [فاطر] ، وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [المرسلات] . [المعجم الوسيط : مادة (فرت)].